الباب الثلاثون

الأخلاق والآداب فى العالم المسيحى

٧٠٠ — ١٣٠٠

الفصل الأول

القانون الأخلاقى المسيحى

كان لابد للإنسان فى مرحلة سكنى الغاب أو فى مرحلة الصيد أن يكون شرهاً — حريصاً فى بحثه عن الطعام ، نهما فى ابتلاعه — لأنه إذا جاءه الطعام مرة لايدرى متى يأتيه مرة أخرى . وكان لا بد له أن يكون شديد الحساسية الشهوانية ، وكثيراً ما يطلق لهذه الشهوات العنان ، فلا يتقيد بزواج لأن ارتفاع نسبة الوفيات تحتم ارتفاع نسبة المواليد ، فكل امرأة يجب أن تصير أماً كلما كان ذلك مستطاعاً ، ولا بد أن تكون وظيفة الذكر حامية على الدوام . ولا بد له أن يكون مشاكساً دائم الاستعداد للقتال من أجل طعامه ورفيقته .

لقد كانت الرذائل فى وقت ما فضائل لا غنى عنها للمحافظة على البقاء ، فلما وجد الإنسان أن أحسن سبيل إلى البقاء — بقاء الفرد وبقاء النوع — هى سبيل التنظيم الاجتماعى ، وسع نطاق عصبة الصيد ، فجعلها هيئة من النظام الاجتماعى لا بد فيها من كبح جماح الغرائز التى كانت عظيمة النفع فى مرحلة الصيد عند كل خطوة يخطوها الإنسان ، حتى يستطاع بذلك قيام المجتمع . فليست كل حضارة إلا توازناً وتجاذباً بين غرائز الإنسان ساكن الغابة وقيود

القانون الأخلاقى ؛ فإذا وجدت الغرائز دون القانون الأخلاقى قضى على الحضارة ، وإذا وجدت القيود دون الغرائز قضى على الحياة ، فالمشكلة التى تواجهها الأخلاق هى أن تنظم القيود بحيث تحمى الحضارة دون أن توهن الحياة .

وكانت بعض الغرائز ، وأكثر ما تكون غرائز اجتماعية ، هى صاحبة السبق فى تهدئة العنف البشرى ، والاختلاط الجنسى الطليق ، والشره ؛ وكانت هى أساساً حيوياً للحضارة . فقد خلق الحب الأبوى ، فى الحيوان والإنسان ، نظام الأسرة الاجتماعى الفطرى ، وما فيها من تأديب تعليمى ، ومساعدة متبادلة ؛ ونقلت السلطة الأبوية ، وهى مزيج من ألم الحب ومتعة الاستبداد ، قانون السلوك الاجتماعى المنقذ للحياة إلى الطفل صاحب النزعة الفردية . وأحاطت القوة المنظمة التى يمارسها الزعيم ، أو الشريف ، أو تمارسها المدينة أو الدولة ، أحاطت هذه القوة وداجت إلى حد كبير قوة الأفراد غير المنظمة . وأخضع حب الاستحسان النفس البشرية إلى إرادة الجماعة ؛ وهدت العادة والمحاكاة من حين إلى حين المراهق والمراهقة إلى السبل التى ارتضاها الناس بعد تجاربهم وأخطائهم . وأرهب القانون الغرائز بشبح العقاب ، وذلل الضمير الشاب بطائفة لا حصر لها من الموانع والمحرمات .

واعتقدت الكنيسة أن هذه المنابع الطبيعية أو الزمنية للأخلاق لا تكفى وحدها للسيطرة على الدوافع التى تحفظ الحياة فى الغابة ، بل تقضى على النظام فى المجتمع ، وقالت إن هذه الدوافع أقوى من أن تكبحها أية سلطة لا تكون لها فى كل مكان وفى وقت واحد قوة مانعة رهيبة . ولهذا فإن القانون الأخلاقى شديد الوقع على الجسم لابد له أن يكون مختوماً بخاتم قوة غير بشرية إذا أريد أن يطيعه الناس ، ولابد له أن يكون مؤيداً بقوة إلهية وذا مكانة فوق المكانة الآدمية تحترمها النفس فى غياب كل سلطة ، وفى أثناء لحظات الحياة وخباياها الخفية . إن السلطة الأبوية نفسها ، وهى عماد كل نظام أخلاقى واجتماعى ، لتنهار فى النزاع

القائم ضد الغرائز البدائية إلا إذا كان لها دعامة من العقيدة الدينية تُغرس فى قلب الطفل . فإذا أريد خدمة المجتمع ونجاته ، فلابد له من دين يقاوم الغرائز الملحة بأوامر ليست من عند البشر ولاتقبل قط نزاعاً ، بل هى أوامر من عند الله نفسه ، محددة واضحة لا تقبل جدلا . وإذ كان الإنسان شديد الإثم والشراسة فإن هذه الوصايا الإلهية يجب ألا يؤيدها الثناء والشرف اللذان يمنحهما الناس من يطيعونها ، أو الخزى والعقاب اللذان يلحقان بمن يخرج عليها ، بل يجب أن يؤيدها ، فضلا عن هذا ، الأمل فى نعيم السماء تناله الفضيلة التى لا تلقى جزاءها فى هذه الدنيا ، وخوف الجحيم التى يتردى فيها الآثمون الذين لايلقون على ظهر الأرض عقاباً . إن هذه الوصايا يجب ألا تأتى من عند موسى بل من عند الله .

وكانت عقيدة الخطيئة الأولى فى اللاهوت المسيحى هى التى مثلت بها النظرية القائلة إن الغرائز البدائية تجعل الإنسان غير صالح للحضارة . وكانت هذه النظرية ، كما كانت فكرة « كارما » فى الديانة الهندية محاولة قصد بها ما يحل بالناس من آلام هم فى الظاهر غير خليقين بها ؛ وهذا التفسير هو أن « الصالحين يقاسون الآلام فى هذه الحياة لأن أسلافهم ارتكبوا الإثم ؛ وتقول النظرية المسيحية إن الجنس البشرى على بكرة أبيه قد لوثته خطيئة آدم وحواء ؛ ويقول جراتيان Gratian فى كتابه Decretum « القرار » (حوالى عام ١١٥٠) الذى اتخذته الكنيسة بصفة غير رسمية جزءاً من تعاليمها : « كل آدمى وُلد نتيجة لاتصال الرجل بالمرأة يولد ملوثاً بالخطيئة الأولى ، معرّضاً للعقوق والموت ، ولهذا فهو طفل مغضوب عليه »[١] لا ينجيه من الخبث واللعنة إلا رحمة الله وموت المسيح الذى كفّر عن آثامه (ولا ينقذ الإنسان من العنف ، والشهوة ، والشره ، وينجيه هو والمجتمع الذى يعيش فيه من الهلاك إلا المثل الذى ضربه المسيح الشهيد فى الوداعة ودماثة الخلق) . وبعثت الدعوة إلى هذه العقيدة ، مضافة إلى الكوارث الطبيعية التى لم تستطع العقول فهمها إلا على أنها عقاب عن الخطايا ، بعثت هذه

الدعوة فى الكثيرين من الناس فى العصور الوسطى شعوراً بأنهم مفطورون على الدنس ، والانحطاط ، والإجرام ، وهو الشعور الذى غلب على كثير من أدبهم قبل عام ١٢٠٠ . ثم أخذ ذلك الشعور بالخطيئة والخوف من الجحيم يتناقص حتى جاء عهد الإصلاح الدينى ، وظهر بعدئذ بقوة ورهبة جديدتين بين المتطهرين المتزمتين .

وتحدث جريجورى الأول ومن جاء بعده من علماء الدين عن سبع خطايا — الكبرياء ، والبخل ، والحسد ، والغضب ، والشهوة ، والشره ، والكسل ، تقابلها فى رأيهم السبع الفضائل الرئيسية : أربع منها « فطرية » أو وثنية امتدحها فيثاغورس وأفلاطون — الحكمة ، والشجاعة ، والعدالة ، والاعتدال ؛ وثلاث فضائل « دينية » — الإيمان ، والأمل ، والإحسان . ولكن المسيحية لم تؤمن قط بالفضائل الوثنية وإن ارتضتها ؛ وكانت تفضل الإيمان عن العلم ، والصبر عن الشجاعة ، والحب والرحمة عن العدالة ، والتعفف والطهر عن الاعتدال . ورفعت من شأن الاتضاع ، ووصفت الكبرياء (وهو من أبرز صفات رجل أرسطو المثالى) بأنه أشنع الذنوب الشنيعة . وكانت المسيحية تتحدث أحياناً عن حقوق الإنسان ، ولكن أكثر ما كانت تؤكده هو واجبات الإنسان — واجباته نحو نفسه ، ونحو بنى جنسه ، ونحو كنيسته وربه . ولم تكن الكنيسة تدعو إلى الاقتداء بالمسيح الرقيق ، الوادع ، الرحيم ، لأنها كانت تخشى أن تجعل الرجال مخنثين . والحق أن رجال المسيحية اللاتينية فى العصور الوسطى كانوا أكثر رجولة من ورثتهم وخلفائهم فى هذه الأيام ، لأنهم كانوا يواجهون من الصعاب أكثر مما يواجهه هؤلاء . ذلك أن علماء الدين والفلاسفة ، كالرجال والدول ، يتصفون بما يتصفون به ، لأنهم فى زمانهم ومكانهم لم يكن لهم مما كانوا عليه بد .

الفصل الثانى

الآداب قبل الزواج

تُرَى إلى أى حد كانت آداب الناس فى العصور الوسطى تمثل أو تحقق المبادئ والنظريات الأخلاقية فى تلك العصور ؟ فلننظر أولا إلى الصورة التى كانت عليها تلك العصور دون أن يكون لدينا رأى سابق نريد إثباته .

لقد كانت أولى الحادثات التى تمت بصلة إلى الأخلاق فى الحياة المسيحية هى التعميد : به كان الطفل يندمج جدياً فى المجتمع وفى الكنيسة ، ويخضع — أو يخضع عنه من يعمدونه — إلى قوانينهما . وفى هذه الحفل يتلقى كل طفل « اسماً مسيحياً » — ويكون هذا الاسم فى العادة اسم أحد القديسين المسيحيين . أما الأسماء التى تضاف بعد هذا الاسم فكانت مختلطة الأصول : ويمكن الرجوع بها خلال أجيال متعددة إلى القرابة ، أو المهنة ، أو المكان ، أو إلى شىء من معارف الجسم أو معالم الخلق ، بل يمكن الرجوع بها أحياناً إلى شىء من الطقوس الكنسية : ومن أمثلة هذه الأسماء سسلى ولكنز دوتر Cicely Wilkinsdoughter وجيمس اسمث James Smith ، ومرجريت فرى ومن Margaret Ferrywoman وماثيو باريس Matthew Paris ، وأجنيس ردهد Agnes Redhead ، وجون مريمان John Merriman ، وربرت لتانى Robert Litany ، وربرت بنديسيت Robert Benedicite أو بندكت Benedict .

وكان جريجورى الأكبر ، كما كان روسو ، يحث الأمهات على أن يرضعن أطفالهن[٣] ؛ وكانت معظم النساء الفقيرات يفعلن هذا ، أما نساء الطبقات العليا

فكانت الكثرة الغالبة منهن لا تفعلنه[٤] . وكان الأطفال محبوبين ، كما هم محبوبين الآن ؟ ولكنهم كانوا يضربون أكثر مما يضربون فى هذه الأيام ، وكانوا كثيرى العدد بالرغم من كثرة من يموتون منهم فى سن الطفولة وسن المراهقة . وكان بعضهم يؤدب البعض لاجتماعهم فى مكان واحد ، وقد تحضروا بسبب خوفهم من ارتكاب الذنوب . وتعلموا من أقاربهم ورفاقهم فى اللعب كثيراً من فنون القطر أو المدينة ، وتقدموا تقدماً سريعاً فى معارفهم وخبثهم . وفى ذلك يقول تومس من أهل سيلانو Celano فى القرن الثالث عشر : « لا يكاد الأولاد ينطقون حتى يتعلموا الخبث ، وكلما تقدموا فى السن زادوا سوءا على سوء حتى يصبحوا مسيحيين بالاسم لا أكثر »[٥] . ولكن الذين يكتبون فى الأخلاق مؤرخون غير صادقين ؛ فقد كان الأولاد يبلغون سن العمل وهم فى الثانية عشرة من عمرهم ويبلغون سن الرشد القانونى فى السادسة عشرة .

وكانت مبادئ الأخلاق المسيحية تتبع مع المراهقين سياسة الصمت بإزاء الأمور الجنسية : فقد كان النضج المالى أى القدرة على كفالة الأسرة يجئ بعد النضج الجنسى أى القدرة على الخلف ؛ وكان الاعتقاد السائد أن التربية الجنسية قد تزيد آلام العفة فى تلك الفترة من العمر ؛ وكانت الكنيسة تتطلب العفة قبل الزواج لتساعد بذلك على الاحتفاظ بالوفاء بعده وعلى النظام الاجتماعى والصحة العامة . ولكن الشاب فى العصور الوسطى كان فى أكبر الظن قد ذاق أنواعاً من الصلات الجنسية قبيل بلوغه السادسة عشرة من عمره . فقد عاد اللواط إلى الظهـــور فى أثناء الحروب الصليبية ، وفى أثر تيار الآراء الشرقية(*) ، وعزلة الرهبان والراهبات[٦] . وكانت المسيحية قد أفلحت فى مهاجمـــة هذا الداء فى العصور القديمة المتأخرة . وقد كتب هنرى رئيس دير كليرفو عن فرنسا فى عام

(*) كثيراً ما تظهر هذه العادة اللعينة فى الحروب ، وقد وجدت فى الغرب والشرق على السواء ، وإذا رجع القارئ إن الفصل الخامس باليونان من هذه السلسلة رأى ما قاله المؤلف عنها عند أولئك القوم . (المترجم)

١١٧٧ يقول : « إن سدوم(*) القديمة قد أخذت تقوم فوق أنقاضها »(٧) واتهم فليب الجميل رهبان المعبد بانتشار اللواط بينهم . وفى كتب التوبة الدينية التى تصف وسائل التكفير عن الذنوب ذكر لضروب الفحش من بينها البهيمية ، وكانت طائفة كثيرة التنوع عن البهائم موضع صلات جنسية بالآدميين(٨) . وكانت الصلات الجنسية من هذا النوع إذا كشفت عوقب الطرفان المشتركان فيها بالإعدام ؛ وفى سجلات البرلمان الإنجليزى ذكر لطائفة من الكلاب ، والمعز ، والبقر ، والخنازير ، والإوز ، حرقت حية هى ومن ارتكب معها الفحشاء من الآدميين . كذلك كثرت مضاجعة المحارم فى تلك الأيام .

ويبدو أن العلاقات الجنسية قبل الزواج ، وفى خارج نطاق الزواج ، كانت منتشرة انشارها فى أى وقت بين أقدم الأزمنة والقرن الثانى عشر ، ذلك أن غريزة الإنسان المختلطة كانت تتعدى الحدود التى تقيمها الشرائع الزمنية والكنسية ، وكانت بعض النساء يعتقدن أن ورعهن فى آخر الأسبوع يكفّر عن مرحهن وبطنهن . وكان الاغتصاب شائعاً (٩) رغم ما يتعرض له المغتصب من أشد ضروب العقاب ، وكان الفرسان الذين يخدمون النساء أو الفتيات الكريمات المولد نظير قبلة أو لمسة من أيديهن يسلون أنفسهم بخادمات هؤلاء السيدات والفتيات ، ومن أولئك السيدات من لم يكن يستطعن النوم مرتاحات الضمائر إلا إذا هيأن بأنفسهن هذه التسلية(١٠) كان مما يأسف له فارس لاتور لاندرى La Tour Landry انتشار الفسق بين بعض الشبان من أبناء الأشراف ؛ وإذا أخذنا بأقواله فإن بعض رجال الطبقة التى ينتمى إليها كانوا يفسقون فى الكنائس بل « على المذبح » نفسه ؛ وهو يحدثنا عن « ملكتين استمتعتا ببهجتهن الآثمة وبلذتهن داخل الكنيسة فى أثنـــاء الصلاة المقدسة فى يوم خميس الصعود

(*) بلدة لوط المذكورة فى الكتاب المقدس . (المترجم)

أثناء الصيام »[١١] . ويصف وليم المالمزبرى William of Molmsbury أشراف النورمان بأنهم منهمكون فى البطنة والدعارة » وأنهم يتبادلون العاشقات بعضهم مع بعض[١٢] خشية أن يضعف الوفاء حدة الشهوة . وكان الأطفال غير الشرعيين منتشرين فى جميع أنحاء العالم المسيحى ، وكانت سيرتهم موضوعاً لآلاف القصص ، وكان أولاد الزنا أبطال عدد من هذه القصص فمنهم كوشولان Cuchulain ، وآرثر Arthur ، وجاوين Gawain ورولان Roland ، ووليم الفاتح ، وكثيرون من الفرسان المذكورين فى تواريخ فرواسار Froissart .

وتمشى العهر مع مطالب ذلك الوقت ؛ فقد كان بعض النساء الذاهبات إلى الحج يكسبن نفقة الطريق ، كما يقول الأسقف بنيفاس ، ببيع أجسادهن فى المدن القائمة فى طريقهن[١٣] . وكان كل جيش يتعقبه جيش آخر من العاهرات لا يقل خطراً عن جيش أعدائه . ويحدثنا ألبرت من أهل إيكس Aix فيقول إن « الصليبيين كان بين صفوفهم جمع حاشد من النساء فى ثياب الرجال ، يسافرن معهم دون أن يميزن عنهم ، ويغتنمن الفرصة التى تتاح لهن مع الرجال »[١٤] . ويقول المؤرخ العربى عماد الدين إنه فى أثناء حصار عكا حضرت ثلثمائة من الفرنسيات الحسان ليروحن عن الجنود الفرنسيين . . . لأن هؤلاء أبوا أن يخرجوا للقتال إذا حرموا لذة النساء ، فلما رأى جنود المسلمين هذا طلبوا أن يهيأ لهم ما هيء لهؤلاء[١٥] . ويقول جرانفيل إن الأشراف الذين كانوا مع القديس لويس فى حربه الصليبية « أقاموا مواخيرهم حول خيمة الملك »[١٦] . وكان طلبة الجامعات ، وبخاصة فى باريس ، ممن استبدت بهم الحاجة إلى هذا الترفيه أو رغبوا فى محاكاة غيرهم فيه ، ولهذا أنشأت الفتيات مراكز لسد هذه الحاجة[١٧] .

وأباحت بعض المدن — أمثال طولوز (طلوشه) ، وأڤنيون ، ومنبلييه ، ونورمبرج — هذه الدعارة قانوناً ، ووضعتها تحت إشراف البلدياب بحجة أنه بغير

هذا الدنس لا تستطيع النساء الصالحات أن يخرجن إلى الشوارع وهن آمنات على أنفسهن[١٨] . وكتب القديس أوغسطين يقول : « إذا منعت العاهرات والمواخير ، اضطربت الدنيا من شدة الشبق »[١٩] ، ووافقه على ذلك القديس تومس أكويناس[٢٠] . وكان فى لندن فى القرن الثانى عشر صف من « المواخير » بالقرب من جسر لندن . وقد أجاز أسقف ونشستر فى بادئ الأمر قيامها ، ثم صدق البرلمان على قيامها فيما بعد[٢١] . وقد حرم القانون الذى أصدره البرلمان عام ١١٦١ على صاحبات بيوت الدعارة أن يأوين فيها نساء يعانين آلام « الضعف الخطر من الاحتراق » — وهذا أول ما عرف من التشريع ضد انتشار الأمراض السرية . وقرر لويس التاسع فى عام ١٢٥٤ نفى جميع العاهرات من فرنسا ، ونفذ هذا القرار فعلا ، ولكن الدعارة السرية لم تلبث أن حلت محل التجارة العلنية ، حتى شكا أهل الطبقات الوسطى من أنه يكاد يكون من المستحيل حماية الفضيلة لدى زوجاتهم ونسائهم من إلحاح الجنود والطلاب . وعم انتقاد هذا القرار فى آخر الأمر حتى ألغى فى عام ١٢٥٦ . وحدد المرسوم الجديد الأماكن التى تستطيع فيها العاهرات أن يسكن ويمارسن مهنتهن فى باريس ، وحدد أيضاً ملابسهن وزينتهن ، وأخضعهن لرقابة رئيس من رؤساء الشرطة يسمى ملك القوادين أو المتسولين أو الأفاقين roi de ribauds[٢٣] . ونصح لويس التاسع وهو يحتضر ولده أن يعيد المرسوم الذى قضى بنفى العاهرات ، ونفذ فليب وصيته ، وكانت النتيجة هى النتيجة السابقة نفسها ؛ وبقى القانون مدوناً فى سجل الشرائع الفرنسية ولكنه لم ينفذ[٢٤] . وكان فى رومة ، كما يقول الأسقف دوران النانى المندى Bishop Durand II of Mende (١٣١١) ، مواخير بالقرب من الفاتيكان ، وقد أجاز رجال البابا إقامتها نظير ما يتقاضون من الأجور[٢٥] . وكانت الكنيسة تظهر العطف على العاهرات ، وأقامت ملاجئ للتائبات من النساء ، ووزعت على الفقيرات الصدقات التى كانت تتلقاها من العاشقات التائبات[٢٦] .

الفصل الثالث

الزواج

كان الشباب فى عصر الإيمان قصير الأجل ، وكان الزواج يحدث فيه مبكرا ، وكان فى وسع الطفل وهو فى السابعة من عمره أن يوافق على خطبته ، وكان هذا التعاقد يتم فى بعض الأحيان ليسهل به انتقال الملكية أو حمايتها . ولقد تزوجت جراس صليبى Grace de Saleby فى الرابعة من عمرها بشريف عظيم يستطيع حماية ضيعتها الغنيـــة ، ثم مات هذا الشريف ميتة سريعة فتزوجت وهى فى السادسة من عمرها بشريف آخر ، وزوجت وهى فى الثالثـــة عشرة بشريف ثالث(٢٧) . وكان يستطاع حل هذا الرباط فى أى وقت من الأوقات قبل سن البلوغ ، وكان يفترض أن تكون هذه السن هى الثانية عشرة للبنت ، والرابعة عشرة للولد(٢٨) . وكانت الكنيسة ترى أن رضى الوالدين أو الأوصياء غير ضرورى للزواج الصحيح إذا بلغ الزوجان سن الرشد ، وتحرم زواج البنات قبل الخامسة عشرة ؛ ولكنها كانت تسمح بكثير من الاستثناءات ، لأن حقوق الملـــكية فى هذه المسأله كانت تطغى على نزوات الحب ، ولم يكن الزواج إلا حادثا من حوادث الأعمال المالية . وكان العريس يقدم لوالدى الفتاة هدايا أو مالا ، ويعطيها « هدية الصباح » ويضمن لها حق بائنة فى مزرعته . وكان هذا الحق فى إنجلترا هو أن يكون للأرملة استحقاق مدى الحياة فى ثلث ما يتركه الرجل من الأرض . وكانت أسرة الزوجة تقدم الهدايا للزوج ، وتخصص لها بائنة تتكون من الثياب ، والأثواب الثمينة ، والآنية والأثاث ، والأملاك فى بعض الأحيان . وكانت الخطبة عبارة عن تبادل عهود أو مواثيق ، وكان العرس نفسه ميثاقا (واسمه

الإنجليزى Wedding مشتق من اللفظ الإنجليسكسونى Weddian ومعناه الوعد) وكان القرين spouse هو الشخص الذى أجاب responded « إنى أريد » .

وكانت الدولة والكنيسة معاً تعدان الزواج صحيحا إذا تم بناء على تبادل عهد شفوى بين الطرفين ولو لم يصحبه أى احتفال قانونى أو كنسى[٢٩] . وكانت الكنيسة تريد أن تحمى النساء بذلك من أن يهجرهن من يغوينهن ، وتفضل هذا الاتحاد عن الفسق أو التسرى ؛ ولكنها كانت بعد القرن الثانى عشر تنكر شرعية الزواج الذى يتم دون مصادقة الكنيسة ، وأخذت بعد مجلس ترنت (١٥٦٣) تتطلب حضور قس فى هذا التعاقد . وكان القانون الزمنى يرحب بتنظيم الكنيسة لشئون الزواج ؛ فكان براكتن Bracton (المتوفى عام ١٢٦٨) يرى أن لابد من إقامة احتفال دينى لكى يصبح الزواج صحيحا . ورفعت الكنيسة شأن الزواج إلى مقام القداسة ؛ وجعلته ميثاقا مقدساً بين الرجل والمرأة والله ؛ ثم بسطت سلطانها القانونى تدريجا على كل خطوة من خطوات الزواج ، من واجبات فراش الزوجية إلى وصية الزوج الأخيرة قبل الوفاة . وذكر قانونها ثبتاً طويلا من « موانع الزواج » ؛ فكان يجب أن يكون كلا الطرفين غير مقيد برباط زواج سابق ، أو بنذر أنذره أن يظل بغير زواج ، وكان الزواج بمن لم يعمد محرما ؛ غير أنه وجدت مع ذلك حالات من الزواج بين المسيحيين واليهود[٣٠] . وكان الزواج بين الأرقاء بعضهم وبعض ، وبين الأرقاء والأحرار ، المستمسكين بالدين الصحيح والضالين ، وحتى بين المؤمنين والمحرومين ، كان الزواج بين هؤلاء يعد صحيحا[٣١] . ويجب ألا يكون بين الطرفين صلة تصل إلى الدرجة الرابعة من القرابة — أى أنه يجب ألا يكون لها جد مشترك فى خلال أربعة أجيال ؛ وفى هذه المسألة كانت الكنيسة ترفض القانون الرومانى وتقبل القانون البدائى قانون الزواج من خارج العشيرة خشية أن يؤدى الزواج بين الأقارب الأدنين إلى الانحطاط الناشئ من التناسل داخل دائرة الأسرة ؛ ولعلها كانت تعمل بذلك على منع تركيز الثروة

نتيجة للروابط الأسرية الضيقة . وكان من الصعب تجنب هذا التزاوج الداخلى فى القرى الريفية ؛ فكان لابد للكنيسة أن تتغاضى عنه ، كما كانت تتغاضى عن كثير من الثغرات الأخرى بين الحقيقة والقانون .

ويجىء بعد حفلة الزواج موكب العرس — بموسيقاه المدوية وثيابه الحريرية الفاخرة — يسير من الكنيسة إلى منزل العريس ، وتعقبه الحفلات فى هذا البيت طول النهار كله ونصف الليل . ولا يصبح الزواج صحيحا حتى يتم اتصال الزوجين . وكان منع الحمل محرما ، ويرى أكويناس أنه جريمة لاتزيد عنها شناعة إلا جريمة القتل العمد[٣٢] ، بيد أن وسائل مختلفة بعضها آلية ، وبعضها كيميائية وبعضها سحرية ، كانت تستخدم لهذا المنع ، وكان أكثر ما يعتمد عليه هو وقف الجماع[٣٣] . وكانت العقاقير المجهضة ، أو المؤدية إلى العقم ، أو إلى العجز الجنسى ، أو إلى الشبق ، تباع مع الباعة المتنقلين . وكانت العقوبات التى وضعها ربانس مورس **Rabanus Maurus** للتكفير عن الآثام تقضى على « من تخلط منى زوجها بطعامها حتى تحسن قبول حبه ، بالندم على فعلتها ثلاثة أعوام »[٣٤] . وكان وأد الأطفال نادراً ، وقد أنشأت الكنيسة من أموال الصدقات فى القرن السادس وما بعده ملاجئ للقطاء فى عدة مدن ؛ ودعا مجلس عقد فى رون **Rouen** فى القرن الثامن النساء اللاتى ولدن أطفالا فى السر أن يودعنهم عند باب الكنيسة ، وأعلنت أنها ستكفلهن ؛ وكان أولئك الأيتام يربون ليكونوا أرقاء أرض يعملون فى أملاك الكنيسة . وقرر قانون أصدره شارلمان أن الأطفال الذين يعرضون للجو فى الخلاء يصبحون عبيداً لمن يتقذوهم ويربونهم . وأنشأ راهب من منبلييه حوالى عام ١١٩٠ جماعة إخوان الروح القدس التى تخصصت فى حماية اليتامى وتعليمهم .

وكان عقاب الزنا قاسيا ، مثال ذلك أن أقل ما كان يحكم به القانون السكسونى على الزوجة التى تخون زوجها هو جدع أنفها وصلم أذنيها ، وأجاز لزوجها أن يقتلها . ولكن الزنا كان منتشرا رغم هذه العقوبات الشديدة وأمثالها(٣٥) ؛ وكان أقل ما يكون انتشاراً بين الطبقات الوسطى ، وأكثر ما يكون بين الأشراف . فكان سادة الإقطاع يغوون رقيقات الأرض ولا يحكم عليهم إلا بغرامة قليلة : فمن « وطئ » بنتاً « من غير شكرها » أى رغم إرادتها — أدى للمحكمة ثلاثة شلنات(٣٦) ؛ ويقول فريمان Freeman إن القرن الحادى عشر « كان عصرا فاسقا » ، وكان يعجب من وفاء وليم الفاتح الظاهرى لزوجته(٣٧) وهو وفاء لا يستطيع أن يعزو مثله لأبيه ؛ ويقول توماس ريت Thomas Wright الأريب إن « مجتمع العصور الوسطى كان مجتمعا فاسد الأخلاق فاجراً »(٣٨) .

وكانت الكنيسة تجيز انفصال الزوجين بسبب الزنا ، أو الارتداد عن الدين ، أو القسوة الشديدة ، وكان هذا الانفصال يسمى divortium ولكن معناه لم يكن إبطال الزواج ؛ أما هـذا الإبطال فلم يكن يمنح إلا إذا ثبت أن الزواج قد خالف أحد الموانع الشرعية التى نص عليها قانون الكنيسة . ويبعد أن تكون هذه الموانع قد ضوعف عددها عن قصد لكى يستعين على الطلاق من يستطيعون أداء الرسوم والنفقات الضخمة التى يتطلبها إبطال الزواج ، بل إن الكنيسة كانت تستخدم هذه الموانع استخداماً حكيما مرناً فى الظروف الاستثنائية التى يرجى أن يؤدى الطلاق فيها إلى وجود وارث إلى ملك لم ينجب أبناء ، أو يكون من ورائه فائدة أخرى للسلم أو السياسة . وكان القانون الألمانى يجيز الطلاق فى حالة الزنا ، بل كان يجيزه فى بعض الأحيان إذا اتفق عليه الطرفان(٣٩) . وكان

الملوك يفضلون قانون أسلافهم على قانون الكنيسة الصارم ؛ وكان سادة الإقطاع وسيداته يعودون إلى القوانين القديمة فيطلق بعضهم بعضاً من غير إذن الكنيسة ؛ ولم تبلغ الكنيسة فى سلطانها واستمساكها بمقتضيات الذمة والضمير درجة من القوة تمكنها من تنفيذ قراراتها إلا بعد أن رفض إنوسنت الثالث أن يوافق على طلب الطلاق الذى تقدم به إليه فليب أغسطس ملك فرنسا القوى .

الفصل الرابع

النســـاء

كانت نظريات رجال الكنيسة بوجه عام معادية للمرأة ؛ فقد تغالت بعض قوانين الكنيسة فى إخضاعها ؛ لكن كثيراً من مبادئ المسيحية وشعائرها رفعت من مكانتها . وكانت المرأة فى تلك القرون لاتزال فى نظر القساوسة وعلماء الدين كما كانت تبدو لكريسستوم — « شراً لا بدّ منه ، وإغواء طبيعيا ، وكارثة مرغوباً فيها ، وخطراً منزليا ، وفتنة مهلكة ، وشراً عليه طلاء »(٤٠) . وكانت لا تزال حواء مجسدة فى كل مكان ، حواء التى خسر بسببها الجنس البشرى جنات عدن ، وأداة الشيطان المحببة التى يقود بها الرجال إلى الجحيم . وكان تومس أكويناس ، وهو فى العادة رسول الرحمة ، يتحدث عنها كما يتحدث الرهبان ، فينزلها من بعض النواحى منزلة أقل من منزلة الرقيق :

إن المرأة خاضعة للرجل لضعف طبيعتها ، الجسمية والعقلية معاً(٤١)... والرجل مبدأ المرأة ومنتهاها ، كما أن الله مبدأ كل شىء ومنتهاه(٤٢) ... وقد فرض الخضوع على المرأة عملا بقانون الطبيعة ، أما العبد فليس كذلك(٤٣) . . . ويجب على الأبناء أن يحبوا آباءهم أكثر مما يحبون أمهاتهم(٤٤) .

وأوجب قانون الكنيسة على الزوج حماية زوجته ، كما أوجب على الزوجة طاعة زوجها . وقد خلق الله الرجل لا المرأة ، فى صورته هو . ويعقب العالم بالقانون الكنسى على ذلك بقوله : « ويتضح من هذا أن الزوجة يجب أن تكون خاضعة لزوجها ، بل يجب أن تكون له أقرب ما تكون إلى الخادمة »(٤٥) . على أن فى هذه الفقرات نغمة الرغبات المرجوة لا الحقائق الواقعة . غير أن الكنيسة

كانت تحتم على الرجل ألا يتزوج بأكثر من واحدة ، وتصر على أن يكون القانون الأخلاقى ذا مستوى واحد للرجال والنساء على السواء ، وتكرم المرأة بعبادة مريم ، وتدافع عن حق المرأة فى وراثة الممتلكات .

وكان القانون المدنى أشد عداء للمرأة من القانون الكنسى . فقد كان كلا القانونين يجيز ضرب الزوجة[٤٦] ، ولما أن أمرت « قوانين بوڤيه وعاداتها فى القرن الثالث عشر » الرجل ألا يضرب زوجته « إلا لسبب »[٤٧] كان ذلك خطوة كبرى إلى الأمام . وكان القانون المدنى ينص على ألا تُسمع للنساء كلمة فى المحكمة « لضعفهن »[٤٨] ، ويعاقب على الإساءة للمرأة بغرامة تعادل نصف ما يفرضه على الرجل نظير هذه الإساءة نفسها[٤٩] . وقد حرم القانون النساء ، حتى أرقاهن مولداً ، من أن يُمثِّلن ضياعهن فى برلمان إنجلترا أو فى الجمعية العامة للطبقات بفرنسا . وكان الزواج يعطى الزوج الحق الكامل فى الانتفاع بكل ما لزوجته من متاع وقت الزواج والتصرف فى ريعه[٥٠] . ولم يكن يرخص للمرأة أن تكون طبيبة .

وكان فى حياتها الاقتصادية من التنوع بقدر ما كان فى حياة الرجل ، فكانت تتعلم وتباشر فنون البيت العجيبة المجهدة : تصنع الخبز والفطائر المتنوعة ، وتطهو اللحم ، وتصنع الصابون والشمع ، والزبد والجبن ، وتعصر الجعة ، وتستخرج الأدوية البيتية من الأعشاب ، وتغزل الصوف وتنسجه ، وتنسج الأقمشة التيلية من الكتان ، وتخيط الملابس لأسرتها ، والسجف والملاءات ، وأغطية الأسرة ، والأنسجة التى تزين بها الجدران . وكان عليها أن تزين بيتها وتحتفظ به نظيفا إلى الحد الذى يسمح به من فيه من الرجال ، وأن تربى الأطفال . وكانت فى خارج الكوخ الزراعى تشترك بقوة وجلد فى أعمال المزرعة : تبذر ، وتزرع ، وتحصد ، وتطعم الفراخ الصغار ، وتحلب البقر ، وتجز الأغنام ، وتساعد على إصلاح البيت ونقشه وبنائه . وإذا كانت من سكان المدن ، كانت وهى فى

البيت أو فى الحانوت ، تقوم بغزل ما يلزم لنقابات المنسوجات الطائفية من غزل ونسيج . ولقد كانت شركة من « نساء الحرير » أول ما أنشأ فى إنجلترا فنون غزل الحرير وتنيه ونسجه(٥١) . وكان عدد النساء فى معظم نقابات الحرف الإنجليزية مساوياً لعدد الرجال ، ويرجع معظم السبب فى هذا إلى أن الصناع كان يسمح لهم أن يستخدموا زوجاتهم وبناتهم ، ويسجلوا أسماءهن فى النقابات . وكانت بعض النقابات الطائفية المخصصة للصائغات من النساء تتألف من النساء وحدهن ، وكان فى باريس فى آخر القرن الثالث عشر خمس عشرة نقابة طائفية من هذا النوع(٥٢) . على أن النساء قلما كن رئيسات فى نقابات الحرف المكونة من الذكور والإناث ، وكن يتقاضين أجوراً أقل من أجور الرجال نظير الأعمال المتساوية . وكانت نساء الطبقات الوسطى يعرضن بملابسهن ثروة أزواجهن ، ويقمن بدور مثير فى الأعياد الدينية والحفلات الاجتماعية التى تقام فى البلدة . وقد ارتفعت نساء الأشراف الإقطاعيين ، باشتراكهن فى تحمل التبعات مع أزواجهن ، وتقبلهن فى ظرف وتمنع ما يقدمه الفرسان وشعراء الفروسية الغزلون من مراسم التبجيل والغرام ، ارتفعت أولئك النسوة إلى منزلة اجتماعية قلما ارتفعت إليها النساء من قبل .

وقد وجدت المرأة فى العصور الوسطى بفضل مفاتنها ، كما تجد عادة ، رغم أوامر الدين والقانون ، وسائل للتحر من نتائج عجزها ؛ ولهذا فإن آداب ذلك العصر ملأى بأخبار النساء اللاتى حكمن رجالهن(٥٣) . ولقد كانت المرأة من وجوه كثيرة متفوقة على الرجل معترفاً لها بهذا التفوق ، فكانت فى أسر الأشراف تتعلم شيئاً من الأدب ، والفن ، والتهذيب ، بينما كان زوجها غير المتعلم يكدح ويحارب ؛ وكان فى وسعها أن تظهر بكل ما لصاحبات الندوات الأدبية فى القرن الثامن عشر من رشاقة ، وتتصنع الإغماء كما تتصنعه البطلة فى روايات رتشردسن Richardson . وكانت فى الوقت نفسه تنافس الرجل فى حريته البذيئة فى القول والفعل ، وتتبادل

وإياه قصص المغامرات ، وكثيراً ما كانت هى البادئة فى الغرام دون حياء(٥٤) . وأيا كانت الطبقة التى تنتمى إليها فقد كانت تتنقل بكامل حريتها ، وقلما كان معها محرم . وكانت تزحم الأسواق وتسيطر على الاحتفالات ، وتصاحب الرجال فى الحج ، وتشترك فى الحروب الصليبية ؛ ولم يكن شأنها فيها للتسلية فحسب ، بل كانت فى بعض الأوقات جنديا فى عدة الحرب الكاملة . وكان الرهبان الخوارو العود يحاولون أن يقنعوا أنفسهم بأن منزلتها دون منزلة الرجال ؛ ولكن الفرسان كانوا يقتتلون لنيل رضاها والشعراء يقرُّون بأنهم عبيد لها . وكان الرجال يتحدثون عنها بوصفها خادماً مطيعاً ، ويحلمون بها على أنها إلهة معبودة . وكانوا يصلون لمريم العذراء ولكنهم يقنعون إذا حصلوا على إليانور الأكتانية Eleanor of Aquitine .

ولم تكن إليانور هذه إلا واحدة من عشرات النساء العظيمات فى العصور الوسطى — أمثال جلا بلاسيديا Galla Plaidedia ، وثيودورا ، وإيرينه Irene ، وأنا كمينا Anna Commena ، وماتلده كونتة تسكانيا ، وماتلده ملكة إنجلترا ، وبلانش النبرية Blanche of Navarre ، وبلانش القشتالية ، وهلواز Héloïse ... وكان جد إليانور وليم العاشر الأكتانى ، أميراً وشاعراً ونصيراً للشعراء الغزلين وزعيما لهم . وكان يفد إلى بلاطه فى بوردو أحسن الفكهين والظرفاء وذوو الشهامة فى جنوبى فرنسا الغربى ؛ وقد تربّت إليانور فى هذا البلاط لتكون ملكة الحياة والآداب جميعاً . واتصفت بكل ما كان فى هذا الجو المشمس الحر من ثقافة وأخلاق : قوة فى الجسم ، ورشاقة فى الحركة ، وقوة فى العاطفة الخلقية والجسمية ، وحرية فى العقل والآداب والحديث ، وخيال شعرى ، وروح مشرقة ، وهيام لاحد له بالحب ، والحرب ، والملذات كلها ، يكاد يصل إلى الموت . ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرها (١١٣٧) عرض عليها ملك فرنسا أن يتزوجها ، لأنه كان يتوق إلى ضم دوقيتها أكتين ،

وثغرها العظيم بوردو إلى تاجه وموارده المالية . ولم تكن تعرف أن لويس السابع بليد ورع ، منهمك أشد الانهماك فى شئون الدولة . فانتقلت إليه بمرحها ، وجمالها ، وتحررها من مقتضيات الضمير ، فلم يعجبه إسرافها ، ولم يهتم بالشعراء الذين تبعوها إلى باريس ليجزوها على رعايتها إياهم بالمدائح والقوافى .

وكانت شديدة الشوق إلى المغامرات ، فاعتزمت أن تصحب زوجها إلى فلسطين فى الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧) ، ولبست هى ووصيفاتها ملابس الرجال والحلل العسكرية ، وبعثن بمغازلهن فى ازدراء إلى الفرسان القاعدين فى أوطانهم ، وركبن فى مقدمة الجيش يلوّحن بالأعلام الزاهية ومن ورائهن الشعراء الغزلون(٥٥) . وأهملها الملك أو لامها ، فسمحت لنفسها فى أنطاكية وغيرها من الأماكن ببعض مغامرات الحب ، فأشيع مرة أنها تحب عمها ريمند البنتيرى Raymond of Pontiers ، ومرة أخرى أنها تحب عبداً مسلماً جميلا ، وقال النمامون الجهلاء مرة ثالثة إنها تحب صلاح الدين التقىّ الورع نفسه(٥٦) . وصبر لويس على هـذا العبث ، وعلى لسانها السليط ، ولكن القديس برنار شهر بها فى العالم . وظنت أن الملك سيطلقها ، فقاضته فى عام ١١٥٢ تطلب الطلاق منه بحجة أن نسبهما متصل فى الدرجة السادسة . وابتسمت الكنيسة ساخرة من هذه الحجة ، ولكنها منحت الطلاق ، وعادت إليانور إلى بوردو ، واستعادت حقها فى ملك أكتين ، وفيها التفّت حولها طائفة كبيرة من الخاطبين ، اختارت منهم هنرى پلانتاجنت Henry Plantagenet ولىّ عهد إنجلترا ؛ وبعد سنتين من ذلك الوقت أصبح هنرى الثانى ، وعادت إليانور ملكة مرة أخرى (١١٥٤) — « ملكة إنجلترا بغضب الله » على حد قولها .

وجاءت إلى انجلترا بأذواق الجنوب ، وظلت فيها ، كما كانت فى فرنسا ، المشترعة العليا للشعراء القصّاصين والغزلين ، ونصيرتهم ، ومعبودتهم . وكانت وقتئذ قد بلغت السن التى تمكّنها من أن تكون وفية ، ولم يجد هنرى ما يشينها .

ولكن الآية انعكست ؛ فقد كان هنرى أصغر منها بإحدى عشرة سنة ولم يكن ينقص عنها فى حدة المزاج وقوة العاطفة ؛ وسرعان ما أخذ يشبع حبه بين نساء البلاط . واستشاطت إليانور غضباً واكتوى قلبها بنار الغيرة ، وهى التى كانت من قبل تحتقر الرجل الغيور . ولما أنزلها هنرى عن عرشها هربت من إنجلترا ، تريد أن تحتمى بأكتين ؛ فأمر بتعقبها ، وقبض عليها ، وزجت فى السجن ؛ وظلت ستة عشر عاماً يذبل غصنها فيه وإن لم يفلّ ذلك من قوة إرادتها . وأثار الشعراء الغزلون عواطف أوربا على الملك ، وائتمر به أبناؤه ، بإيعاز منها ، لخلعه ، ولكنه ظل يقاومهم ويحاربهم إلى يوم مماته (١١٨٩) . وخلف رتشرد قلب الأسد أباه ، وأخرج أمه من السجن ، وعيّنها نائبه لملك إنجلترا حين خرج لقتال صلاح الدين فى الحرب الصليبية ، ولما أصبح ابنها چون ملكا ، آوت إلى دير فى فرنسا ، حيث ماتت « من الحزن ، وضعف العقل » فى الثانية والسبعين من عمرها . لقد كانت إليانور « زوجة فاسدة ، وأمًّا فاسدة ، وملكة فاسدة »[٥٧] ؛ ولكن منذا الذى يفكر فيها على أنها من جنس خاضع ذليل ؟

الفصل الخامس

الأخلاق العامة

ما فتئت الشرائع والحِكَم الأخلاقية فى كل عصر من العصور تقاوم ما درج عليه الآدميون من غش وخيانة . ولم يكن الناس فى العصور الوسطى الطيِّب منهم والخبث أكثر أو أقل من غيرهم فى هذه الناحية ، فكانوا يكذبون على أبنائهم وأزواجهم ، وطوائفهم ، وأعدائهم ، وأصدقائهم ، وحكوماتهم ، وربهم . وكان الرجل فى العصور الوسطى مولعاً أشد الولع بتزوير الوثائق ، يزوّر الأناجيل غير الصحيحة ، ولعله لم يقصد فى يوم من الأيام أن تؤخذ على أنها أكثر من قصص طريفة ؛ ويزوّر الأوامر البابوية ليتخذها سلاحاً فى السياسة الدينية ؛ وكان الرهبان الأوفياء يزوّرون العهود ليكسبوا بها منحاً لأديرتهم من الملوك[٥٨] . ولقد زوّر لافرانك رئيس أساقفة كانتربرى ، كما تقول المحكمة البابوية ، عهداً يثبت به قِدم كرسيه الدينى[٥٩] ؛ وزوّر المدرسون عهوداً يخلعون بها على بعض الكليات فى كيمبردج أقدمية زائفة ، وكثيراً ما أفسدت « الأكاذيب التقية » النصوص ، واخترعت ألف معجزة تعظم بها أصحابها . وكانت الرشوة منتشرة فى التعليم ، والتجارة ، والحرب ، والدين ، والحكومة ، والقانون[٦٠] ؛ وكان تلاميذ المدارس يرسلون الفطائر لممتحنيهم[٦١] ، ورجال الحكم يتقدمون الرشا ليعيَّنوا فى المناصب العامة ، ويجمعون من أصدقائهم ما يلزمهم من المال[٦٢] . وكان من المستطاع تقديم الرشا للشهود لكى يقسموا أى قسم يراد منهم ، كما كان المتقاضون يقدمون الهدايا إلى المحلفين والقضاة[٦٣] ؛ وقد اضطر إدورد ملك إنجلترا أن يفصل معظم قضاته ووزرائه فى عام ١٢٨٩ لأنهم مرتشون[٦٤]

وكانت القوانين تتطلب أن يقسم الناس الأيمان فى كل صغيرة وكبيرة ، فكانوا يقسمون على الكتب أو المخلفات المقدسة ؛ وكان يطلب إليهم فى بعض الأحيان أن يقسموا بألا ينقضوا القسم الذى يوشكون أن يقسموه (٦٥) ؛ ومع هذا فإن الحنث بالأيمان قد كثر إلى حد جعل الناس يلجئون إلى تحكيم القتال رجاء أن يظهر الله أى الجانبين أكثر كذباً من الجانب الآخر (٦٦) .

وكثيراً ما كان أرباب الحرف فى العصور الوسطى يخدعون المشترين ببيعهم بضائع قديمة بالية ، أو منقوصة الطول ، أو يحتالون عليهم ببيعهم سلعاً غير المرغوب فيها . وكان بعض الخبازين يسرقون أجزاء صغيرة من العجين أمام أعين ملائهم ، ويستخدمون لذلك الغرض باباً سرياً فى وعاء العجين ؛ وكانت أقمشة رخيصة توضع سراً فى مكان أقمشة غالية دفع ثمنها وتعهد البائعون بتوريدها ؛ وكان الجلد الرخيص « يزيّن » لكى يبدو شبيهاً بأحسن أنواع الجلود (٦٧) ، وكانت الحجارة تخبأ فى أكياس الدريس والصوف التى تباع بالوزن (٦٨) ؛ واتهم الذين يعبئون اللحوم فى نوروتش Norwich بأنهم « يشترون الخنازير المصابة بالحصبة ، ويصنعون منها وزما وفطائر مضرة بالصحة » (٦٩) . ويصف برثلد الرجنسبرجى Berthold of Regenesburg (حوالى ١٢٢٠) مختلف أنواع الغش التى تستخدم فى الحرف المتباينة ، والحيل التى يحتال بها التجار فى الأسواق على أهل الريف (٧٠) . وكان الكتّاب والوعّاظ ينددون بالجرى وراء الثروة ، ولكن حكمة ألمانية من حكم العصور الوسطى تقول : « إن كل الأشياء تطيع المال » ؛ وكان بعض الأخلاقيين فى تلك العصور يرون أن حب الكسب أقوى من الغريزة الجنسية (٧١) . ولسنا ننكر أن شرف الفروسية كثيراً ما كان من الحقائق الواقعة نظام الإقطاع ، ولكن يبدو أن القرن الثالث عشر لم يكن يقل ولعاً بالمادة عن أى عهد آخر من عهود التاريخ . تلك كلها أمثلة من الاحتيال والخداع جمعناها من أزمنة طويلة ومساحات واسعة ؛ وهى بلا ريب من الوقائع

الشاذة رغم كثرة عددها ؛ وليس من حقنا أن نستخلص منها نتيجة أكثر من أن الناس فى عصر الإيمان لم يكونوا خيراً منهم فى عصرنا هذا عصر الشك ، ومن أن القانون والأخلاق قلما أفلحا فى الاحتفاظ بالنظام العام ضد ما ركب من نزعة فردية فى طبيعة الناس الذين لم يقصد بهم بفطرتهم أن يكونوا مواطنين خاضعين للقانون .

وكانت معظم الدول تعاقب على جريمة السرقة الخطيرة بالإعدام ، كما كانت الكنيسة تحكم على مرتكبى السطو بالحرمان من الدين ؛ ومع هذا فإن السرقة بأنواعها — من النشل فى الطرق إلى الأشراف النهابين على ضفاف الرين — كانت من الجرائم الواسعة الانتشار . وكان مرتزقة الجنود الجياع ، والمجرمون الفارون والفرسان المفلسون ، يجعلون الطرق غير آمنة ؛ وكانت شوارع المدن تشهد فى ظلام الليل كثيراً من الشجار ، والسرقة ، والاغتصاب ، والاغتيال[٧٢] . وتدل سجلات أسباب الوفاة فى « إنجلترا الطروب » فى القرن الثالث عشر على « نسبة فى الاغتيال إذا حدثت فى هذه الأيام عُدّت من الفضائح »[٧٣] . ويكاد الاغتيال يبلغ ضعفى عدد حالات الموت بسبب الحوادث المفاجئة ، وقلما كان يقبض على المجرمين . وكانت الكنيسة تجاهد وهى صابرة للقضاء على حروب الإقطاع ، ولكن ما نالته من نصر متواضع فى هذه الناحية كان سببه أنها حولت الناس وخصامهم إلى الحروب الصليبية ، التى كانت من إحدى النواحى حروباً استعمارية تبغى الفتح والمكاسب التجارية ؛ فلما اشتبك المسيحيون فى الحرب لم يكونوا أكثر رضا بالهزائم أو أكثر وفاء بالعهود والمعاهدات من المحاربين المنتمين إلى الأديان والعهود الأخرى .

ويبدو أن القسوة والوحشية كانتا فى العصور الوسطى أكثر منهما فى أية حضارة قبل حضارتنا نحن . ذلك أن المتبربرين لم يتخلوا عن بربريتهم بمجرد أن صاروا مسيحيين . وكان رجال الأشراف ونساؤهم يصفعون خدمهم ويصفع

بعضهم بعضاً ؛ كما كان القانون الجنائى قاسياً قسوة وحشية ، ولكنه عجز مع ذلك عن قمع الوحشية والجريمة . فكثيراً ما كان التعذيب بالعذراء ، وبجفنة الزيت الملتهب ، وبعمود الإحراق ، وحرق الأحياء ، وسلخ جلودهم ، وتمزيق أطرافهم بشدها إلى الحيوانات ، كثيراً ما كانت هذه الوسائل الوحشية تستخدم فى العقاب . وكان القانون الأنجليسكسونى يعاقب الجارية السارقة بإرغام ثمانين جارية على أن تؤدى كل واحدة منهن غرامة ، وأن تأتى بثلاث حزم من الوقود وأن تحرق السارقة حية(٧٥) . ويقول سلمبينى Salimbene الراهب الإيطالى فى تاريخه الإخبارى ، وكان معاصراً للحروب التى شبت نارها فى إيطاليا الوسطى فى القرن الثالث عشر ، إن المسجونين كانـــوا يعاملون بوحشية لو أننا سمعنا بها فى شبابنا لما صدقناها :

فقد كانوا يربطون رءوس بعض الرجال بحبل ومخلة ، ويشدون الحبل بقوة تخرج عيونهم من أوقابها ، وتسقطها على خدودهم ؛ ومنهم من كانوا يربطونهم بإبهام يدهم اليمنى أو اليسرى وحدها ، تحمل ثقلهم كله بعد أن يرفعوا عن الأرض ، ومنهم من كانوا يعذبون بصنوف من العذاب أشنع من هذه وأشد منها رهبة أخجل من ذكرها ؛ وآخرون ... كانوا يجلسون وأيديهم مشدودة خلف ظهورهم . ويضعون تحت أقدامهم أوعية مملوءة بالفحم الملتهب . . . أو يربطون أيديهم بأرجلهم حول حفرة (كما يربط الحمل وهو ينقل إلى القصاب) ويبقونهم معلقين على هذا النحو طول النهار من غير ما طعام ولا شراب ؛ أو كانوا يحكون قصبات أرجلهم بقطعة خشنة من الخشب حتى يظهر عظم الساق عاريا من اللحم ، وهو عمل تكفى رؤيته وحدها لأن تبعث الأسى والألم فى النفوس(٧٦) .

وكان رجل العصور الوسطى يتحمل الألم بشجاعة ، ولعله كان أقل إحساساً به مما يبدو على رجال أوربا الغربية فى هذه الأيام . وكان الرجال والنساء من جميع الطبقات شهوانيين إلى حد بعيد ؛ وكانت أعيادهم ولائم شراب ، وميسر ،

ورقص ، وانطلاق فى العلاقات الجنسية ؛ وكانت فكاهاتهم صريحة فى بذاءتها صراحة لاتكاد تماثلها فيها فكاهات هذه الأيام(٧٧) ؛ وكانت أحاديثهم أكثر من أحاديث هذه الأيام حرية وأوسع منها مجالا(٧٨) ؛ وقلما كان رجل فى فرنسا يفتح فاه من غير أن يذكر الشيطان ، على حد قول چوانفيل(٧٩) . وكان الناس فى العصور الوسطى أقدر على سماع الفحش منا ، ولم يكونوا يبرمون من الإصغاء إلى أفحش الأقوال التى وردت فى مقالات ربليه Rabelais ؛ وحسبنا أن نذكر أن الراهبات فى كتب تشوسر كن يستمعن دون حياء إلى الأقذار الواردة فى قصة ملر Miller's Tale ؛ وفى أخبار سلمبينى الصالح أجزاء تبلغ من البذاءة والفحش درجة تعز على الترجمة (٨٠) . وكانت الحانات كثيرة العدد ، وكان منها ما يقدم « فطائر » بالجعة على طراز هذه الأيام(٨١) . ولقد حاولت الكنيسة أن تغلق الحانات فى أيام الآحاد ، ولكنها لم تلق إلا قدراً ضئيلا من النجاح . وكان من حق جميع الطبقات أن تسكر فى بعض الأوقات ، وقد وجد زائر لمدينة لوبك Lübeck نساء من طبقة الأشراف فى حجرة الخمور يدمنّ الشرب من تحت أقنعتهن(٨٣) . وكان فى كولونى جمعية يلتقى أعضاؤها لشرب النبيذ مجتمعين وقد اتخذت شعاراً لها : « اشرب وأنت مرح » ولكنها كانت تفرض على أعضائها قواعد صارمة من الاعتدال فى السلوك والأدب فى الحديث .

وكان رجل العصور الوسطى كغيره من الرجال مزيجا بشريا كاملا من الشهوانية والغرام ، والذلة ، والأنانية ، والقسوة ، والرقة ، والصلاح ، والشره ؛ فقد كان أولئك الرجال والنساء ، الذين يشربون ويسبون بكل ما فيهم من قوة ، رحماء رحمة تمس شغاف القلوب ، يخرجون آلاف الصدقات . وكانت القطط والكلاب وقتئذ كما هى الآن حيوانات مدللة ، وكانت الكلاب تدرب على قيادة المكفوفين(٨٥) ؛ وقد نمت فى قلوب الفرسان عاطفة الحب لخيلهم ، وصقور صيدهم ، وكلابهم . وبلغ تنظيم الصدقات مستوى رفيعاً جديداً فى القرنين الثانى

عشر والثالث عشر ، فكان الأفراد ، وكانت النقابات الطائفيـــة ، والحكومات ، والكنيسة تشترك كلها فى تخفيف آلام المنكوبين . وكان إخراج الصدقات واجبا عاما يؤديه الجميع ؛ فالذين يرجون دخول الجنة يوصون بالأموال للصدقات ، والرجال الأغنياء يتبرعون بمهور البنات الفقيرات ، ويطعمون العشرات من الفقراء فى كل يوم ، والمئات منهم فى الأعياد الكبرى . وكان الطعام يوزع عند كثير من أبواب بيوت الأشراف ثلاث مرات فى الأسبوع على كل من يطلبه(٨٦) . وكانت كل سيدة عظيمة ، إلا القليل النادر منهن ، تحس أن واجبها الاجتماعى ، إن لم يكن واجبها الأخلاقى ، أن تشترك فى تدبير شئون الصدقات ؛ ولقد دعا روجر بيكن فى القرن الثالث عشر إلى أن تنشئ الدولة رصيداً للإنفاق منه على الفقراء ، والمرضى ، والطاعنين فى السن(٨٧) ، ولكن القسط الأكبر من هذا العمل ترك تدبيره إلى الكنيسة ؛ فقد كانت الكنيسة من إحدى نواحيها مُنَظِّمة للصدقات تشمل القارة بأسرها ؛ وكان جريجورى الأكبر ، وشارلمان ، وغيرهم يحتمون أن يخصص ربع العشور التى تجبيها كل أبرشية لمعونة الفقراء والعجزة(٨٨) ؛ وقد نفذ هذا إلى حين ، ولكن استيلاء الرؤساء من رجال الدين والعلمانيين على إيرادات الأبرشيات ، أخل بإدارتها لمواردها فى القرن الثانى عشر ، وتحمل عبء هذه الصدقات أكثر من ذى قبل الأساقفة ، والرهبان ، والراهبات والبابوات . وكانت الراهبات كلهن ، إلا عددا قليلا من الخاطئات ، يهبن أنفسهن للتعليم ، والتمريض ، وأعمال البر ؛ وإن أعمالهن المطردة الاتساع فى هذه النواحى لتعد من أنصع الأعمال وأعظمها تقوية للعزائم فى تاريخ العصور الوسطى وتاريخ هذه الأيام . وكانت الأديرة التى تستمد مواردها من الهبات والصدقات ، وإيراد الأملاك الكنسية ، تطعم الفقراء ، وتعنى بالمرضى ، وتفتدى الأسرى ؛ وكان آلاف من الرهبان يعلمون الشبان ، ويعنون بالأيتام ، ويعملون فى المستشفيات ؛ وكان دير كلونى العظيم يكفر عما له من ثراء واسع بالتصدق بالكثير من أمواله ؛

وكان البابوات يبذلون كل ما فى وسعهم لمساعدة فقراء رومة ، وواصلوا بطريقتهم الخاصة النظام الإمبراطورى القديم نظام توزيع الطعام على الأهلين.

ولكن التسول كان كثيراً بالرغم من هذا البر كله ؛ فقد كانت المستشفيات وبيوت الإحسان تحاول إطعام كل من يقصدها وإيواءهم ؛ وسرعان ما أحاط أبوابَها العُرج ، والمقعـــدون ، والمقطوعو السيقان ، والمكفوفون ، والأفاقون ذوو الثياب البالية الذين يتنقلون من « مستشفى إلى مستشفى ويجوسون خلالها يتصيدون لقيمات الخبز وقطع اللحم » (٨٩) . وقد اتسع نطاق التسول فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى وزاد المتسولون إصراراً على مهنتهم ، وبلغ هذا الاتساع والإصرار حداً لا نظير له فى أفقر الأراضى فى الشرق الأقصى .

الفصل السادس

ملابس العصور الوسطى

تُرى أى صنف من الناس كان سكان أوربا فى العصور الوسطى ؟ ليس فى وسعنا أن نقسمهم عناصر ، فقد كانوا جميعاً من « العنصر الأبيض » إذا استثنينا منهم العبيد الزنوج ، ولكنهم كانوا مع هذا خليطا متنوعاً من الخَلْق لا يستطيع أحد تصنيفهم . كان منهم يونان بيزنطية وهلاس ؛ والإيطاليون أنصاف اليونان سكان إيطاليا الجنوبية ، وسكان صقلية اليونان — المغاربة — اليهود ؛ وكان منهم أهل إيطاليا الرومان ، والأمبريون ، والتسكان ، واللمبارد ، والجنويون ، والبنادقة ؛ وقد بلغ من تباين هؤلاء أن كانت كل طائفة منهم تنم عن أصلها بثيابها ، وشعر رأسها ، ولسانها ؛ وكان منهم البربر ، والعرب ، واليهود ، ومسيحيو أسپانيا ، وكان منهم الفرنسيون الغسقونيون ، والبرغنديون ، والباريسيون ، والنورمان ؛ ومنهم أهل الأراضى الوطيئة الفلمنكيون ، والوالون Walloons ، والهولنديون ؛ ومنهم أهل إنجلترا الكلت ، والإنجليز ، والسكسون ، والدنمرقيون والسلالات النورمانية ؛ وكلت ويلز ، وأيرلندة ، واسكتلندة ، والنرويجيون ، والسويديون ، والدنمرقيون ؛ ومنهم مئات القبائل الألمانية ؛ والفنلنديون ، والمجر والبلغار ؛ وصقالبة پولندة ، وبوهيميا ؛ والدول البلطية ، والبلقان ، والروسيا . وقصارى القول أن أوربا قد تجمع فيها خليط من الدماء والأجناس . والأنوف ، واللحى ، والثياب ، لا ينطبق على تباينه العظيم أى وصف من الأوصاف .

وكان الجنس الألمانى قد أصبحت له الغلبة فى الطبقات العليا فى جميع بلاد أوربا الغربية ما عدا جنوبى إيطاليا وأسپانيا ، وذلك بسبب الهجرات والفتوح

التى لا يحصى عديدها . وقد بلغ الإعجاب بشَعر الجنس الأشقر وعيونه مبلغاً اضطر القديس برنار أن يجاهد طوال موعظة كاملة لكى يوفّق بين هذا الإعجاب وبين العبارة الوارة فى نشيد الإنشاد القائلة : إنى أسود ولكن جميل ؛ وكان الفارس المثالى طويلا ، أشقر ، ملتحياً ؛ كما كانت المرأة المثالية فى الملاحم والروايات نحيلة ممشوقة القوام ، رشيقة ، زرقاء العينين ، ذات شَعر طويل أشقر أو ذهبى . وقد حل محل شَعر الفرنجة الطويل عند الطبقات العليا فى القرن التاسع رءوس مقصوصة الشعر من الخلف ، وليس عليها من الشعر إلا غطاء فى أعلاها ؛ واختفت اللحى بين الطبقات العليا من الأوربيين فى القرن الثانى عشر ؛ غير أن الذكور من الزرّاع ظلوا يطيلون لحاهم القذرة وشعر رأسهم إلى حد اضطروا معه أحياناً إلى جمعه فى جدائل(٩٠) . وكان أهل إنجلترا على اختلاف طبقاتها يطيلون شعر رأسهم ، وكان المتأنقون الفناجرة فى القرن الثالث عشر يصبغون شعرهم ويلوُونه بمكاوٍ من الحديد ، ويربطونه بالأشرطة(٩١) . وكانت النساء المتزوجات فى هذا القرن وذاك البلد يربطن شعرهن بشبكة من الخيوط الذهبية ، بينما كان الغلمان من الطبقات العليا يرسلونه على ظهورهم ، وكانت لهم فى بعض الأحيان بالإضافة إلى هذا ، جديلتان تنوسان على صدورهم منحدرتان فوق أكتافهم(٩٢) .

وكان أهل أوربا الغربية فى العصور الوسطى أكثر وأجمل ثياباً مما كانوا قبل ذلك الوقت أو بعده ؛ وكثيراً ما كان الرجال يفوقون النساء فى زينة الثياب وبهجة ألوانها . وكانت الجبة والعَباءة الرومانيتان الفضفاضتان فى القرن الخامس عشر تحاربان حرباً خاسرة مع السراويل القصيرة والمناطق التى كان الغاليون يلبسونها ويتمنطقون بها ؛ فقد كان جو الشمال الحار وأعماله الحربية يتطلبان ثياباً أضيق وأسمك مما أوحى به دفء الجنوب وما فيه من راحة ؛ ولما انتقل مركز القوة إلى شمال جبال الألب أعقب ذلك الانتقال ثورة فى الثياب . فكان الرجل العادى يلبس سروالا طويلا ضيقا يعلوه قباء ، أو قميص نصفى ، مصنوعان من

الجلد أو القماش المتين ، ويعلق فى منطقته سكينا ، وكيسا ، ومفاتيح ، وعدد الصانع إن كان من الصناع ؛ وكان يرسل فوق كتفيه لفاعة أو حرملة ، ويضع على رأسه قلنسوة أو قبعة من الصوف ، أو اللباد أو الجلد ؛ ويغطى رجليه بجوربين طويلين ، وينتعل حذاءين عاليين من الجلد ينحنيان إلى أعلى عند أصابع القدمين ، كيلا يتمزقا من الاصطدام . وازداد طول الجورب قرب أواخر العصور الوسطى حتى بلغ أعلى الفخذ ، وتطور منه السروال غير المريح الذى استبدله الرجل الحديث بقميص الشعر ثوب القديسين فى العصور الوسطى ، كأن هذا السروال كفارة غير منقطعة عن ذنوبه الماضية . وكانت أجزاء الثياب كلها تقريباً من الصوف إلا القليل منها المصنوع من الجلد المدبوغ وغير المدبوغ الذى كان يلبسه الفلاحون أو الصائدون ؛ وكانت كلها تقريباً تغزل وتنسج وتفصل وتخاط فى البيت ؛ ولكن الأغنياء كان لهم خياطون خاصون يسمون فى إنجلترا « المقصات » ، واستغنى قبل القرن التاسع عشر عن الأزرار التى كانت تستعمل من حين إلى حين فى العهد القديم ، ثم عادت إلى الظهور لتكون زينة لا ينتفع بها فى شىء ؛ ومن هنا جاءت عبارة « لا يساوى زرا Not worth a button » الإنجليزية[٩٣] . ونشأت فى ألمانيا فى القرن الثانى عشر بين الرجال والنساء على السواء عادة لبس جلباب ذى حزام فوق الحلة الألمانية الضيقة .

وكان الأغنياء يزينون هذه الأثواب الأساسية بمائة من الوسائل التى تفتق عنها خيالهم . فكانت حواشيها وأطرافها اللاصقة للعنق تسوى بالفراء ؛ وحل الحرير ، أو الأطلس ، أو المخمل محل التيل أو الصوف حيث يسمح بذلك الجو ؛ وغطى الرأس بقلنسوة من المخمل ، وانتُعلت أحذية من القماش الملون تنطبق كل الانطباق على شكل القدمين . وكانت أجمل الفراء تستورد من الروسيا ؛ وأحسنها كلها الفراء الثمينة المتخذة من جلد القاقم الأبيض ؛ وكان يحدث أن يرهن الأشراف أرضهم ليبتاعوا جلد قاقم لزوجاتهم . وكان الأغنياء يلبسون سراويل

تحتية من التيل الأبيض الرفيع ، وجورباً طويلا ملوناً فى أغلب الأحيان ، ومصنوعا عادة من الصوف ، وفى بعض الأحيان من الحرير ؛ وقميصاً من التيل الأبيض ، ذا طوق فاخر وردن جميل ؛ وكان يلبس فوق هذا كله مئزراً ، ومن فوقها كلها فى الجو البارد أو المطير عباءة ، أو حرملة ، يمكن أن تمد حتى تغطى الرأس . وكانت بعض القلانس ذات قمة مستوية مربعة ؛ وقد اصطنع هذه القلانس المعروفة باسم « ألواح الملاط mortiers » المحامون والأطباء فى أواخر العصور الوسطى ، وبقيت الآن فى أثواب كبار رجال الكليات الجامعية . وكان المتأنقون فى الثياب يلبسون قفازين فى كل الجواء و« يكنسون الأرض المتربة بأذيال مآزرهم وجلابيبهم الطويلة » كما يقول الراهب أردركس فيتالس Ardericus Vitalis شاكيامتحسرا(٩٤) .

ولم يكن الرجال يزينون بالحلى أجسامهم وحدها ، بل كانوا يزينون بها أيضا ثيابهم — قلانسهم ، ومآزرهم ، وأحذيتهم . وكانت بعض الأردية تطرز عليها باللؤلؤ نصوص مقدسة أو عبارات بذيئة(٩٥) ؛ وأخرى تزين أطرافها بمخرمات منسوجة من خيوط الذهب أو الفضة ؛ ومنهم من كان يلبس ثيابا من خيوط الذهب . وكان على الملوك أن يميزوا أنفسهم بزينة أكثر من هذه كلها ؛ فكان إدورد المعترف يلبس مئزرا مزركشا بالذهب من صنع زوجته المهذبة إدجيثا Edgitha ، وكان شارل الجسور Charles the Bold صاحب برغندية يلبس مئزرا فخما مطعما بالحجارة الكريمة ومثقلا بها يقدر ثمنه بمائتى ألف دوقة (نحو ١٫٠٨٢٫٠٠٠ دولار) . وكان الناس كلهم عدا الفقراء منهم يتختمون ، وكان لكل إنسان ذى شأن ولو ضئيل خاتم منقوش عليه رمزه الخاص ، وكانت أية علامة بهذا الخاتم تقبل على أنها توقيعه هو نفسه .

وكانت الملابس تعد دليلا على منزلة الإنسان أو ثرائه ، وكانت كل طبقة تحتج إذا قلدت أثوابها الطبقة التى دونها ، وقد سنت القوانين المالية — كما حدث

فى فرنسا فى سنتى ١١٤٩ و١٣٠٦ — لتنظم ما ينفقه الناس على ملابسهم حسب ثرواتهم وطبقاتهم . وكانت حاشية السيد العظيم ، أو جماعة الفرسان التابعين له ، تلبس فى المناسبات والأعمال الرسمية أثوابا يهديها هو إلى أفرادها مصبوغة باللون المحبب له أو الذى يميزه عن غيره ؛ وكانت هذه الحلل الخاصة تسمى بالفرنسية livrée (وبالإنجليزية livery) (ومعناها الموزَّعة) لأن السيد الكبير كان يوزعها (deliver) مرتين فى العام . على أن الأثواب الجيدة فى العصور الوسطى كانت تعمل لتبقى مدى الحياة ، ومنها ما كان يعنى أصحابه بالنص على من تؤول إليه فى وصيته .

وكانت نساء الطبقات العليا يلبسن قميصاً طويلا من التيل ، ومن فوقه جلباب أو مئزر ذو حواش من الفراء يصل إلى القدمين ويعلوه قميص نصفى يبقى منفرج الطرفين إذا لم يكن فى الدار غرباء ، ولكنه يربط طرفاه إذا جاء البيت زوّار ؛ وذلك لأن جميع النساء المتأنقات يتقن إلى أن يظهرن تحيلات القوام . وقد يتمنطقن بمناطق مرصعة بالجواهر ، ويمسكن بكيس من الحرير ، ويلبسن بأيديهن قفازاً من جلد الشامواه . وكثيراً ما كن يضعن الأزهار فى شعرهن ، أو يربطنه بخيوط من الحرير ذات الجواهر . وكانت بعض السيدات يثرن غضب رجال الدين ، وغضب أزواجهن بلا ريب ، بأن يلبسن قبعات طويلة مخروطية مزدانة بقرنين ؛ وقد جاء على النساء حين من الدهر كانت فيه المرأة غير ذات القرنين هدفاً لسخرية الساخرين[٩٦] . وأصبحت الكعاب العالية فى أواخر العصور الوسطى هى الطراز المحبب ؛ وكان الناقدون الأخلاقيون يشكون من أن النساء كثيراً ما يرفعن أطراف أثوابهن بوصة أو بوصتين ليظهرن أرساغهن وأحذيتهن الظريفة ؛ أما سيقان النساء فلم يكن يبصرها إلا الأخصاء ، وكانت رؤيتها غالية الثمن . وقد ندد دانتى بنساء فلورنس لظهورهن علناً فى ثياب « تكشف عن صدورهن وأثدائهن »[٩٧] . وكانت ثياب النساء فى حفلات

البرجاس موضعاً للتعليقات المثيرة من رجال الدين ؛ وقد وضع الكرادلة قوانين يحددون بها طول أثواب النساء ؛ ولما أمر رجال الدين أن تلبس النساء النقاب حرصاً على أخلاقهن « جعلن هذا النقاب يصنع من الموصلين الرقيق والحرير المشغول بالذهب ، فظهرن فيه أجمل عشرات المرات مما كن بغيره ، واستلفتن عيون النظارة وأغرينهم بالفساد أكثر من ذى قبل »[٩٨] ؛ وكان جويو البروڤنسى Guyot of Provins يشكو من أن النساء يستخدمن المساحيق على وجوههن بكثرة لم يبق معها من هذه المساحيق شيء تلوّن به الصور والتماثيل فى الكنائس ، وأنذرهن بقوله إنهن حين يلبسن الشَّعر المستعار ، أو يضعن الكمادات أو مسحوق الفول ولبن الخيل على وجوههن لتجميلها ، إنما يُضفن بذلك مئات السنين لمقامهن فى الأعراف[٩٩] . وقد عنّف برثلد الرچنسبرجى Berthold of Regenesburg حوالى ١٢٢٠ النساء بفصاحة ماكان أضيعها :

أيتها النساء ، إنكن ذوات حنان عظيم ، وإنكن لأسرع فى الذهاب إلى الكنيسة من الرجال . . . ومنكن من سينجون لولا شرَك واحد تقعن فيه : . . . ذلك أنكن تردن أن تنلن إعجاب الرجال فتصرفن جهودكن كلها فى زينة ثيابكن . . . والكثيرات منكن يؤدين للخياطة أجراً لا يقل عن ثمن الثوب نفسه ؛ فالثوب يجب أن يكون له وقايتان على الكتفين ، ويجب أن يثنى وتكون له أهداب حول أطرافه كلها ؛ وأنتن لا تكتفين بإظهار فخركن فى عُرَى أزراركن نفسها ، بل إنكن فوق هذا ترسلن أقدامكن إلى الجحيم بما تحملنها من أنواع العذاب الخاصة بها . . . وأنتن تشغلن أنفسكن ببراقعكن ! وتحولنها تارة إلى هذه الناحية وتارة أخرى إلى تلك ، وتطرزنها فى مواضع مختلفة بخيوط الذهب ، وتصرفن فيها كل جهودكن ، فتقضى إحداكن ستة أشهر كاملة فى صنع نقاب واحد ، وهو عمل آثم لا تبتغى به أكثر من أن يثنى الرجال على ثيابها فيقولون : « ربّاه ! ما أجمله ! هل وُجد من قبل ثوب يضارعه فى الجمال ؟ » . أما هن

فيقلن : « أيها الأخ برثلد ، إنا لا نفعل هذا إلا إكراما للرجل الصالح ، حتى تقل نظراته إلى غيرنا من النساء » . لا ، يا سيدتى ، صدقنى ؛ لو أن رَجُلك الصالح صالح بحق ، لفضل أن يستمع إلى حديثك الطاهر عن النظر إلى زينتك الخارجية . . . إن فى وسعكم أيها الرجال أن تقضوا على هذا ، وتكافحوه بقوة ؛ بالقول الحسن أولا ، فإذا أصررن على عنادهن ، فأقدموا بشجاعة . . . وانتزعوه من فوق رءوسهن ، ولو اقتلعت معه أربع شعرات أو عشر ، وألقوه فى النار ! ولا تفعلوا هذا مرتين أو أربع مرات فحسب ؛ وسترون أنهن سرعان ما يرجعن عن غيهن[١٠٠] ».

وكانت النساء فى بعض الأحيان يتأثرن بهـذا الوعظ ، وحدث قبل أيام سفنرولا Savonarola بمائتى عام أن ألقين ببراقعهن وحليهن فى النار[١٠١] . ولكن أمثال هذه التوبة كانت لحسن الحظ نادرة وقصيرة الأجل .

الفصل السابع

فى المنزل

لم يكن منزل العصور الوسطى مريحاً كثيراً ؛ فقد كانت نوافذه قليلة ، وقلما كان بها ألواح زجاجية ؛ وكانت المصاريع الخشبية تغلقها لتمنع البرد ووهج الشمس . وكان موقد يدفئ المنزل أو أكثر من موقد ، وكانت التيارات الهوائية تدخله من مئات الثقوب التى فى الجدران ، وتجعل المقاعد ذات الظهور العالية نعمة كبرى . وكان من عادة سكانها أن يلبسوا فى الشتاء قبعات وفراء مدفئة فى داخل المنزل نفسه . وكان الأثاث قليلا ولكنه جيد الصنع ، والكراسى أيضاً قليلة ، وكانت فى العادة غير ذات ظهور ، ولكنها كانت فى بعض الأحيان محفورة حفراً جميلا ، ومنقوشاً عليها شارات أصحابها المميزة ، ومطعمة بالحجارة الكريمة . وكانت معظم المقاعد تحفر فى أبنية الجدران أو تبنى فوق صناديق فى مظلات البساتين . وكانت الطنافس نادرة الاستعمال قبل القرن الثالث عشر ، ولكن إيطاليا وأسپانيا كانتا تستعملانها ؛ ولما انتقلت إليانور القشتالية إلى إنجلترا فى عام ١٢٥٤ للزواج من إدورد الأول غطى خدمُها أرض جناحها فى وستمنستر بطنافس كما يفعل أهل أسپانيا — ومن ثم انتشرت هذه العادة فى إنجلترا . أما أرض البيوت العادية فكانت تنثر عليها الأعشاب أو القش ، فكانت بعض البيوت لهذا السبب كريهة الرائحة إلى حد يأبى معه قس الأبرشية أن يزورها . وكانت أنسجة مزركشة تغطى بعض الجدران ، لتزينها وتمنع عنها تيارات الهواء ، ولتقسم بهو المنزل الكبير إلى حجرات صغيرة . وظلت بيوت إيطاليا وپروڤانس تحتفظ بذكريات الترف الرومانى ، فكانت لذلك أوفر راحة وأكثر مراعاة

لشروط الصحة من بيوت شمال أوربا . وكانت بيوت الطبقات الوسطى فى ألمانيا تحصل على ما يلزمها من الماء من مضخات مركبة على آبار توصل الماء إلى المطبخ[١٠٢] . .

ولم تكن النظافة فى العصور الوسطى من الإيمان ؛ وكانت المسيحية الأولى قد نددت بالحمامات وقالت إنها بؤر للفساد والفسق ، وكان تحقيرها للجسم بوجه عام مما جعلها تهمل العناية بقواعد الصحة . ولم يكن استعمال المنديل على الطريقة الحديثة معروفاً فى ذلك الوقت[١٠٣] ؛ وكانت النظافة تتبع الثروة وتختلف باختلاف دخل الأفراد ؛ فكان السيد الإقطاعى ، ورجل الطبقة الوسطى المثرى ، يستحمان مرات معقولة فى أحواض خشبية كبيرة ، ولما انتشر الثراء فى القرن الثانى عشر انتشرت معه نظافة الجسم ؛ وكانت مدن كثيرة فى ألمانيا ، وفرنسا ، وإنجلترا فى القرن الثالث عشر تحتوى حمامات ؛ ويقول أحد الكتّاب إن أهل باريس كانوا يستحمون فى عام ١٢٩٢ أكثر مما يستحمون فى القرن العشرين[١٠٤] ، وكان من نتائج الحروب الصليبية إدخال حمامات البخار العامة من بلاد الإسلام إلى أوربا[١٠٥] ؛ وكانت الكنيسة تعارض وجود الحمامات العامة بحجة أنها تفسد الأخلاق ؛ وكان لهذه المخاوف ما يبررها فى كثير من تلك الحمامات ؛ وكان فى بعض البلدان حمامات معدنية عامة .

وكان بالأديرة ، وقصور سادة الإقطاع ، وبيوت الأغنياء ، مراحيض تفرغ محتوياتها فى بالوعات ، ولكن سكان معظم البيوت كانوا يقضون حاجتهم فى مراحيض خارج البيت ، وكان المرحاض الخارجى الواحد فى كثير من الحالات يفى بحاجة اثنى عشر منزلا[١٠٦] . وكانت الأنابيب التى تنقل الفضلات من ضروب الإصلاح التى أدخلت إلى إنجلترا فى عهد إدورد الأول (١٢٧١ — ١٣٠٧) وكانت أوعية حجرات النوم فى بيوت باريس فى القرن الثالث عشر تفرغ من النوافذ فى شوارع المدينة ، ولا يصحب هذا العمل إلا تحذير للمارة :

احذروا الماء ! Gar l'eau — وظلت هذه الحوادث المفاجئة السيئة يتكرر ذكرها فى المسالى إلى أيام موليير . وكانت المراحيض العامة ترفاً نادر الوجود ؛ وقد وجد بعضها فى سان چمنيانو San Gimignano عام ١٢٥٥ ، ولكن فلورنس لم يكن فيها وقتئذ شىء منها(١٠٧) ، فكان الناس يقضون حاجتهم فى فناء المنزل ، وعلى درج السلم ، وفى الشرفات ؛ وكان ذلك يحدث فى قصر اللوفر نفسه . وقد صدر مرسوم بعد وباء ١٥٣١ يحتم على أصحاب البيوت فى باريس أن ينشئوا مرحاضاً فى كل بيت ، ولكن هذا الأمر كثيراً ما كان يخالف(١٠٨) .

وكان أفراد الطبقات العليا والوسطى يغسلون أيديهم قبل الطعام وبعده ، لأنهم كانوا يتناولون معظم الطعام بأصابعهم ؛ ولم تكن هناك إلا وجبتان منتظمتان فى اليوم ، إحداهما فى الساعة العاشرة صباحا ، والأخرى فى الرابعة مساء ؛ غير أن كلتا الوجبتين قد تدوم عدة ساعات ؛ وكان موعد الوجبة فى البيوت الكبيرة يعلن بالنفخ فى بوق الصيد . وقد تكون مائدة الطعام ألواحاً خشنة تقام على قوائم من الخشب ، وقد تكون أحيانا خوانا عظيما متين الصنع من الخشب الثمين المحفور حفراً يدعو إلى الإعجاب ، وكان من حولها مقاعد أو دكك ، والدكة تسمى بالفرنسية banc ومنها اشتق لفظ banquet للوليمة . وكانت فى بعض البيوت الفرنسية آلات عجيبة ترفع مائدة كاملة الإعداد من طبقة سفلى أو تنزلها من طبقة عليا ، ثم تزيلها من فورها حين يفرغ الجالسون من تناول الطعام (١٠٨) ، وكان الخدم يحملون أباريق الماء لكل طاعم يغسل فيها يديه ويجففهما فى قطائل يأخذها أولئك الخدم ، ولم تكن هذه القطائل تستخدم فى القرن الثالث عشر ، ولكن الطاعمين كانوا يجففون أيديهم فى غطاء المائدة(١١٠) . وكان الطاعمون يجلسون أزواجا ، كل زوج مكون من رجل وامرأة ، وكان كل اثنين يأكلان عادة من صفحة واحدة ، ويشربان من كوب واحد(١١١) . وكان كل فرد يعطى ملعقة ؛ وكانت الشوك معروفة فى القرن الثالث عشر ، ولكنها قلما كانت تقدم

للطاعمين ؛ وكان الآكل يستخدم سكينه الخاصة . وكانت الأكواب ، وأطباقها ، والصحاف تصنع عادة من الخشب(١١٢) ، ولكن سادة الإقطاع والأغنياء من الطبقة الوسطى كانت لهم صحاف من الخزف أو من مزيج القصدير والرصاص ، ومنهم من كان يضع على المائدة أدوات من الفضة ، بل إنها كانت تتخللها آنية من الذهب فى بعض الأحيان(١١٣) . وقد تضاف إلى هذه الآنية صحاف من الزجاج ، وصفحة أخرى كبيرة من الفضة فى صورة سفينة ، تحتوى أنواعا من التوابل ، وسكين صاحب الدار وملعقته . وكان كل اثنين من الآكلين يعطيان قطعة كبيرة من الخبز ، مستوية ، ومستديرة ، وسميكة ، يضع عليها كل واحد اللحم والخبز يأخذهما بأصابعه من الصحفة العامة التى يدار بها عليه . وكان الطاعم يأكل هذه القطعة بعد نهاية الطعام أو تعطى إلى الكلاب والقطط التى يغص بها المكان ، أو ترسل إلى الفقراء من الجيران . وكانت الوجبة العظيمة تختتم بالتوابل والحلوى ، ثم بالنبيذ .

وكان الطعام موفوراً ، أو متنوعا ، وحسن الإعداد ، إلا أن انعدام وسائل التبريد سرعان ما كان يفسد اللحم ، ويعلى من شأن التوابل التى يستطاع بها حفظه أو إخفاء تلفه ؛ وكانت بعض هذه التوابل تستورد من بلاد الشرق ولكن غلو ثمنها كان يجعل الناس يزرعون غيرها فى حدائق البيوت — ومن هذه البقدونس ، والخردل ، والقصعين ، واليانسون ، والثوم ، والشبت . . . وكانت كتب الطهو كثيرة ومعقدة ؛ وكان الطاهى فى المنزل العظيم رجلا عظيم الشأن يحمل على كتفيه كرامة البيت وسمعته . وكانت لديه طائفة كبيرة من الأوعية النحاسية ، وآنية الغلى ؛ والقدور ؛ وكان يفخر بما يقدمه من الأصناف التى تسر العين وتلذ الفم . وكان اللحم ، والدجاج ، والبيض رخيصا(١١٤) ، وإن كان ثمنها مع ذلك يضطر الفقراء إلى الاقتصار على الخضر وهم كارهون(١١٥) . وكان الفلاحون يطعمون الخبز الأسمر الخشن المصنوع من دقيق الشعير ، والشوفان ،

أو الشيلم كاملا ، يخبز فى البيت ؛ أما سكان المدن فكانوا يفضلون الخبز الأبيض — يصنعه الخبازون — يظهرون بذلك علوهم عن أهل الريف . ولم تكن هناك بطاطس ، أو بن ، أو شاى ؛ ولكن اللحوم والخضر التى تؤكل الآن فى أوربا — ومنها ثعابين الماء ، والضفادع ، وحيوانات القواقع البحرية — كانت كلها تقريبا مما يطعمه رجل العصور الوسطى[١١٦] . وقبل أن يحل عهد شارلمان كان الأوربيون قد أتموا ، أو كادوا يتمون ، أقلمة الفواكه وأنواع النقل الأسيوية ؛ غير أن البرتقال كان لا يزال نادراً فى القرن الثالث عشر فى شمال جبال الألب والبرانس . وكان أكثر اللحوم انتشاراً هو لحم الخنزير ؛ فقد كانت الخنازير تقتات بالفضلات التى تلقى فى الشوارع ، ثم يأكل الناس الخنازير . وكان من الاعتقادات الشائعة أن لحم الخنزير يسبب الإصابة بالجذام ، ولكن هذا الاعتقاد لم يقلل من رغبة الناس فيه ، وكان الوزم والفصيد(*) من الأطعمة المحببة فى العصور الوسطى ؛ وكان المضيف من العظماء يضع على المائدة فى بعض الأحيان خنزيراً كاملا ، ويقطعه أمام ضيوفه ؛ وكان هذا يعد من الأطعمة الشهية التى لا تقل فى ذلك عن لحوم الحجل ، والسمان ، والدج ، والطاووس ، والكركى . وكان السمك من الأطعمة الأساسية ، والرنكة من الأطعمة التى يعمد إليها الجنود ، والبحارة ، والفقراء ؛ أما منتجات الألبان فكان استعمالها أقل منه فى هذه الأيام ، ولكن جُبن برى Brie اشتهر منذ ذلك الوقت البعيد[١١٧] . ولم تكن أنواع السلطة قد عرفت ، وكانت الحلوى نادرة . وكان السكر لا يزال يستورد من الخارج ، ولم يكن قد حل بعد محل عسل النحل فى التحلية ؛ وكانت الحلوى بعد الطعام هى الفاكهة والنقل ، وكانت الفطائر لا حصر لأنواعها ؛ يشكلها الخبازون هى والكعك بألطف ما يتصوره الخيال من أشكال ولا يلومهم على هذا أحد رجلا كان أو امرأة[١١٨] . وقد يبدو من الأمور الغريبة التى

(*) دم يوضع فى معى ويشوى . (المترجم)

لا يصدقها العقل أنهم لم يكونوا يدخنون بعد الطعام ، وكان الرجال والنساء يستبدلون بهذا شرب الخمر .

وإذ كان الماء غير المغلى مما لا تؤمن عاقبته فقد كانت جميع الطبقات تجد فى الجعة والنبيذ بديلا منه ، ولهذا كان من الأسماء النادرة اسما Drinkwater و Boileau « اشرب الماء » وفى هذا دليل على عدم الميل إلى شربه . وكان من أنواع الخمور خمر التفاح والكمثرى ، وكانا من المسكرات الرخيصة التى يتناولها الفلاحون . وكان السُّكْر من الرذائل المحببة للرجال والنساء فى العصور الوسطى ، وكانت الحانات يخطئها الحصر ، والجعة رخيصة الثمن ، فكانت هى شراب الفقراء المعتاد يتناولونه فى جميع الأوقات حتى فى الفطور . وكان يسمح للأديرة والمستشفيات القائمة شمال جبال الألب بجالون من الجعة لكل شخص فى اليوم(١١٩) . وكان لكثير من الأديرة ، والقصور ، وبيوت الأغنياء ، معاصرها الخاصة ، لأن الجعة فى البلاد الشمالية كانت من ضرورات الحياة لا يزيد عليها فى ذلك إلا الخبز . وكان الأغنياء فى كل الأمم ، وجميع الطبقات فى أوربا اللاتينية ، يفضلون عليها النبيذ ؛ وكانت فرنسا تعصر أشهر أنواعه ، وتتغنى بمديحه فى مئات الأغانى الشعبية . وكان الفلاحون فى وقت قطف الكروم يعملون أكثر مما يعملون فى سائر أيام العام ، وكان رؤساء الأديرة الصالحون يجزونهم على جدهم بإجازة من القواعد الأخلاقية ؛ وتحتوى أغنية كان يتغنى بها نزلاء دير القديس بطرس فى الغابة السوداء بعض عبارات رقيقة :

فإذا وضع الفلاحون العنب ، جيء بهم إلى الدير وقدم لهم اللحم والشراب بكثرة ؛ ووضعت هناك خابية كبيرة ، وملئت بالنبيذ . . . ليشرب منها كل واحد منهم . . . فإذا لعب الشراب برءوسهم وضربوا الخازن أو الطاهى ، لم يؤدوا غرامة من أجل هذا العمل ، وظلوا يشربون حتى لا يستطيع كل اثنين منهم أن يحملا الثالث إلى العربة(١٢٠) .

وكان رب البيت عادة يسلى المدعوين بعد الوليمة بضروب من الشعوذة ، والشقلبة ، والغناء ، والتهريج . وكان لبعض سادة الإقطاع طائفة خاصة بهم من هؤلاء المسلمين ؛ وكان لبعض الأغنياء مازحون فى وسعهم أن يوجهوا وقاحتهم المرحة وفكاهاتهم البذيئة دون أن يخشوا عقاباً أو تأنيباً . وإذا أراد المدعوون أن يقوموا هم بتسلية أنفسهم كان فى وسعهم أن يرووا القصص ، أو يستمعوا إلى الموسيقى أو يعزفوها ، أو يرقصوا ، أو يتغازلوا ، أو يلعبوا النرد ، والشطرنج ، الألعاب الداخلية الأخرى ؛ وحتى الأشراف أصحاب الألقاب من الرجال والنساء كانوا يتراهنون ويلعبون الغميضاء . ولم تكن ألعاب الورق قد عرفت بعد ، وقد حرمت القوانين الفرنسية الصادرة فى عام ١٢٥٦ و ١٢٩١ صنع النرد أو لعبه ، ولكن لعب الميسر بالنرد كان واسع الانتشار رغم هذا التحريم ، وكان رجال الأخلاق يتحدثون عن ثروات فقدت ونفوس ضلت نتيجة للعب الميسر . ولم يكن هذا اللعب محرماً على الدوام بمقتضى القانون ؛ وكانت سينا Siena تهيئ له أمكنة فى الميدان العام(١٢١) ؛ وقد حرم بأمر من مجلس عقد فى باريس (١٢١٣) وبمرسوم أصدره لويس التاسع (١٢٥٤) ؛ ولكن أحداً لم يكن يهتم بهذا التحريم : وأضحت هذه اللعبة من ضروب التسلية التى ينهمك فيها الأشراف ويقضون فيها أوقاتاً طوالا ، وهى التى اشتق منها اسم خازن بيت مال الملك exchequer من المنضدة أو لوحة الشطرنج المختلفة الألوان Chequered table أو Chessboard التى كان إيراد الدولة يعد عليها(١٢٢) . وقد ذهل أهل فلورنس فى أيام دانتى من لاعب مسلم كان يلعب على ثلاث لوحات مختلفة فى وقت واحد مع أمهر لاعبى المدينة ؛ فقد كان ينظر بعينيه إلى إحدى اللوحات ، ويحتفظ بوضع اللوحتين الأخريين فى عقله ، وقد كسب لعبتين وتعادل مع اللاعب الثالث(١٢٣).

وكانت لعبة الداما معروفة فى فرنسا وإنجلترا ، وتسمى فى الأولى dames وفى الثانية draughts .

وكان الواعظون من رجال الدين يحرمون الرقص ، ولكن الناس كلهم تقريبا كانوا يمارسونه إلا من وهبوا أنفسهم للدين . وكان تومس أكويناس ذو النزعة المعتدلة يبيح الرقص فى حفلات العرس ، أو فى الاحتفال بقدوم صديق من خارج البلاد أو بنصر قومى ؛ وقد بلغ من أمر هذا القديس الطيب القلب أن قال : إن الرقص إذا كان فى حدود الأدب رياضة بدنية مفيدة للصحة(١٢٤) ؛ وأظهر ألبرتس مجنس مثل هذا التسامح ، ولكن رجال الأخلاق فى العصور الوسطى كانوا بوجه عام يعترضون على الرقص ويعدونه من اختراع الشيطان(١٢٥) ؛ ولم تكن الكنيسة ترضى عنه ، لأنها تراه مغريا بالفساد(١٢٦) ؛ ولقد بذل شباب العصور الوسطى الجرىء كل ما فى وسعه لتبرير مخاوفها(١٢٧) . وكان الفرنسيون والألمان بنوع خاص مولعين بالرقص ، وابتدعوا كثيراً من ضروبه الشعبية ؛ يمارسونها فى مواسم السنة الزراعية ، أو فى الاحتفال بالنصر ، أو لتقوية روح الشعب المعنوية إذا ألمت به كارثة أو انتشر بينه وباء . ويصف أحد الكتاب رقص البنات فى الحقول بقوله : إنه أبهج ملذات الربيع ، وإذا ما احتفل بمنح لقب فارس لأحد الشبان اجتمع كل الفرسان المجاورون له بعدتهم الحربية كاملة ، وقاموا بضروب من الألعاب على ظهور الخيل أو راجلين ، والعامة من حولهم يرقصون على نغمات الموسيقى العسكرية . وكان الناس أحياناً يسرفون فى الرقص حتى يصبح وباء : فقد حدث فى عام ١٢٣٧ أن فرقة من الأطفال الألمان ظلت ترقص على طول الطريق من إرفورت Erfurt إلى أرنستادت Arnstadt ؛ حتى مات كثيرون منهم فى الطريق ، وظل بعض من نجا منهم يعانون مرض الرُّقاص St Yttus'Dance(*) أو غيره من الاضطرابات العصبية الأخرى طول حياتهم(١٢٨) .

وكان معظم الرقص يدور أثناء النهار وفى الهواء الطلق ؛ ذلك بأن البيوت لم تكن جيدة الإضاءة بالليل — فقد كانت تنار بمصابيح مرتكزة أو معلقة ذات

(*) اضطراب عصبى مصحوب بتشنجات متقطعة . (المترجم)

فتائل وبها زيت ، أو بمشعل من شحم الضأن ؛ وإذ كان الشحم والزيت كلاهما غاليا فقد كان العمل والقراءة قليلين بعد غروب الشمس . ولهذا كان الضيوف يتفرقون بعد الظلام بزمن قليل ، ويأوى أصحاب البيت إلى حجراتهم الخاصة . وقلما كانت حجرة النوم كافية ، وكان يحدث أحياناً أن يجد الإنسان فراش نوم إضافى فى بهو المسكن أو فى حجرة الاستقبال . وكان الفقراء ينامون مستريحين على فرش من القش ، والأغنياء ينامون متعبين على وسائد معطرة ، وحشيات من الريش . وكانت فرش العظماء تغطى بكلة تقيهم البعوض ويستعان على تعليقها بكراسى . ولم يكن ثمة ما يمنع نوم عدد من الأفراد ذكوراً كانوا أو إناثاً صغاراً أو كبارا فى حجرة واحدة . وكان الناس من جميع الطبقات فى إنجلترا أو فرنسا ينامون عشرة(١٢٩) .

الفصل الثامن

المجتمع والألعاب

لقد كانت الغلظة التى تتصف بها آداب العصور الوسطى بوجه عام يخففها بعض ما فى التأديب والمجاملات الإقطاعية من ظرف . فقد كان الرجال إذا التقوا يسلم بعضهم على بعض باليد ، كأن هذا عهد منهم بالمسالمة وعدم الاستعداد لاستلال السيف . وكانت ألقاب الشرف لا حصر لها وكانت متفاوتة المنزلة تبلغ المائة عدا ؛ وكان من العادات الظريفة أن يخاطب كل كبير بلقبه واسمه الأول أو اسم ضيعته . وقد سن قانون للآداب يتبعه أفراد المجتمع الراقى فى الظروف المختلفة — فى البيت ، وفى أثناء الرقص ، وفى الشوارع ، وفى ألعاب البرجاس ، وفى بلاط الملك ، وكان على السيدات أن يتعلمن كيف يمشين ، ويحيين ، ويركبن الخيل ، ويلعبن ، ويحملن الصقور برشاقة على معاصمهن ... ؛ وكانت هذه الآداب كلها وأخرى مثلها للرجال تؤلف ما يعرف باسم **آداب البلاط Courtoisie** . وقد نشرت فى القرن الثالث عشر إرشادات كثيرة الآداب اللياقة(١٣٠) .

وكان المسافر ينتظر المجاملات والضيافة من أبناء طبقته . فكان المسافرون يستضافون أثناء سفرهم فى أديرة الرجال إن كانوا ذكوراً والمسافرات يستضفن فى أديرة النساء ، على سبيل الصدقة إن كانوا فقراء أو نظير أجور أو هبات إن كانوا أغنياء . وقد أنشأ الرهبان منذ القرن الثامن مضايف عند ممرات جبال الألب ، وكان لبعض الأديرة بيوت كبرى للضيوف تتسع لثلثمائة من المسافرين ، وبها اصطبلات لخيولهم(١٣١) . على أن معظم المسافرين كانوا ينزلون فى « نُزُل » أنشئت على الطريق ؛ وكانت رخيصة الأجور ، وفى استطاعته الرجل أن يجد فيها مومساً بأجر

معتدل إذا حافظ على كيس نقوده من السرقة . وكان الكثيرون يتحدون أخطار السفر — لما يجدونه فى الطريق من أسباب الراحة السالفة الذكر — ومن هؤلاء التجار ، وأصحاب المصارف ، والقساوسة ، والدبلوماسيون ، والحجاج ، وطلاب العلم ، والرهبان ، والسائحون ، والأفاقون . وكانت طرق العصور الوسطى ، على ما فيها من متاعب وأخطار غير مشجعة على الأسفار ، غاصة بالكثيرين من الناس ذوى التشوف والآمال الذين يظنون أنهم سيكون أسعد حالا إذا بدلوا مكانهم .

وكانت الفروق بين الطبقات شديدة فى الأسفار كما هى فى التسلية والألعاب . ولكن الخاصة والسوقة كانوا يختلطون من حين إلى حين : إذا عقد الملك جمعية عامة من أتباعه الإقطاعيين ، ووزع الطعام على المجتمعين ، وإذا قام فرسان الأشراف بحركات عسكرية ، وإذا دخل أمير أو أميرة ، أو ماك أو ملكة إحدى المدن كامل العدة فى موكب فخم واصطف الناس على جانبى الطريق العام ليمتعوا أنظارهم بموكبه ، وإذا أقيم يرجاس أو عقدت محاكمة بالاقتتال وسمح للجمهور بحضورهما . وكانت المشاهد المنظمة جزءا أساسياً من الحياة فى العصور الوسطى ؛ فقد كانت المواكب الدينية ، والاستعراضات العسكرية ، والاحتفالات التى تقيمها نقابات الحرف ، تملأ الشوارع بالأعلام ، والمشاعل ، وصور القديسين من الشمع ، والتجار السمان ، والفرسان المتبخترين ، والفرق الموسيقية العسكرية ، وكان الماجنون المتنقلون يمثلون مسرحيات قصيرة فى القرية أو ميدان المدينة ؛ والمغنون الجائلون يغنون ويلعبون ؛ ويقصون قصص الغرام ، والمشعوذون والقفازون يعرضون ألعابهم ، والرجال والنساء يمشون أو يرقصون على حبال مشدودة فوق هاويات سحيقة خطرة ؛ وكنت ترى أحياناً رجلين معصوبى العيون يمارس كلاهما بعض الحيل على زميله ؛ أو كان يؤتى بطائفة من الوحوش إلى البلدة حيث تعرض حيوانات غريبة ورجال عجيبون ، وحيث يقتتل حيوان مع حيوان حتى يقتل أحدهما :

وكان الصيد رياضة ملكية يعمد إليها الأشراف ولا تقل شأناً عندهم عن المثاقفة . وكانت قوانين الصيد تحدد مواسمه بفترات قليلة فى العام ، وكانت للأشراف أملاك يصيدون فيها ويُعَدُّ الاعتداء عليها سرقة بحكم القانون . وكانت غابات أوربا لا تزال مسكناً لوحوش لم تعترف بعد بفوز الإنسان فى حربه من أجل الاستيلاء على الكوكب الذى تعيش فيه ؛ وحسبنا أن نذكر أن مدينة باريس مثلا قد هاجمتها الذئاب عدة مرار فى العصور الوسطى . وكان الصائد من ناحية ما يعمل للاحتفاظ بسيادة الآدمى المزعزعة على هذه الأرض ، كما كان يعمل من ناحية أخرى لزيادة موارد الطعام ؛ ولم يكن أقل من هذين العملين شأناً أنه كان يُعد نفسه للحرب التى لا مفر منها بتقوية جسمه وروحه وتعويدهما ملاقاة الأخطار ، والقتال ، وسفك الدماء . وكان فى الوقت عينه يجعل من عمله هذا مهرجاناً . فكانت القرون العظيمة المصنوعة من العاج والمطعمة أحياناً بالذهب تدعو النساء ، والرجال ، والكلاب : النساء يجلسن فى رشاقة على الجياد المتبخترة وأرجلهن على جانب واحد من السروج ؛ والرجال فى حلل زاهية وعدَّة حربية متباينة — القوس والسهم ، والبلطة الصغيرة ؛ والحربة ، والسكين ؛ وكلاب الصيد على اختلاف أنواعها تجذب مقاودها . وإذا ما أدى الطراد إلى عبور حقول الفلاحين ، كان من حق السيد وأتباعه ، وضيوفه أن يعبروا هذه الحقول مهما يكن التلف الذى يصيب البذور والمحاصيل ، ولم يكن يشكو من الفلاحين إلا المتهورون الذين لا يحسبون للعواقب حساباً[١٣٢] . وقد نظم الفلاحون الفرنسيون الصيد فجعلوا له قواعد ، وسموه الطراد ، ووضعوا له مراسم وآداباً معقدة .

وكانت السيدات يشتركن بنوع خاص فى أكثر ضروب الصيد أرستقراطية — وهو الصيد بالبزاة ، فقد كان فى جميع الضياع الكبرى أقفاص تحوى أنواعاً كثيرة من الطيور ، أغلاها ثمناً هى البزاة . وكان البازى يعلَّم الجلوس على معصم السيد أو السيدة فى أى وقت ؛ وكانت بعض السيدات المتأنقات يحتفظن بها ومن

يستمعن إلى الصلاة فى الكنائس . وقد ألف الإمبراطور فردريك الثانى كتاباً ممتازاً فى الصيد بالبزاة بلغت عدد صفحاته ٥٨٩ صفحة ، وكان هو الذى جاء إلى أوربا من بلاد الإسلام بعادة السيطرة على أعصاب البازى وتشوُّفه بتغطية رأسه بغطاء من الجلد . وكانت أنواع مختلفة من البزاة تدرّب على الطيران العالى ، ومهاجمة أنواع مختلفة من الطيور ، وقتلها أو جرحها ، ثم العودة إلى معصم الصائد ، حيث يقربها ويقدم لها قطعة من اللحم جزاء لها على صنعها فتسمح له بأن يضع رجليها فى شرك حتى يبصر فريسة أخرى . ويكاد يكون البازى الحسن التدريب أحسن ما يهدى للشريف أو الملك ؛ وقد افتدى أحد أدواق برغندية ولداً له بأن أرسل اثنى عشر صقراً أبيض لأسرة السلطان بايزيد . وكان منصب حافظ البزاة الأكبر فى فرنسا من أعلى المناصب وأكبرها مرتبا فى المملكة .

وكانت كثيراً من الألعاب الأخرى تخفف عن الناس حر الشمس وبرد الشتاء ، وتحول عواطف الشباب ونشاطه إلى ضروب من المهارة الحيوية . فقد كان كل صبى تقريباً يتعلم السباحة ، وكان الناس كلهم فى شمالى أوربا يتعلمون الانزلاق على الثلج ، وكان سباق الخيل من الألعاب المحبوبة الواسعـــة الانتشار وبخاصة فى إيطاليا ؛ وكانت كل الطبقات تمارس الرمى بالقوس والسهام ؛ ولكن طبقات العمال وحدها هى التى كانت تجد فسحة من الوقت لصيد السمك ؛ وكانت فى العصور الوسطى ضروب مختلفة من ألعاب الكرة ، ولعبة الكرة والصولجان hockey ، ورمى القرص quoits ، والمصارعة والملاكمة ، والتنس Tennis ، وكرة القدم ... وقد نشأت لعبة التنس فى فرنسا ، ولعل منشأها هناك من أصل إسلامى ؛ ويلوح أن اسمها مشتق من لفظ Tenezi الفرنسى أى « العب » — وهو اللفظ الذى كان اللاعب يعلن به بدايه لعبه[١٣٣] . وقد انتشرت هذه اللعبة فى فرنسا وإنجلترا انتشاراً بلغ منه أن كانت تلعب أحياناً أمام جماهير كبيرة فى دور التمثيل أو الهواء الطلق[١٣٤] . وكان الأيرلنديون يلعبون لعبة الكرة والصولجان

منذ القرن الثانى الميلادى ، ويصف مؤرخ بيزنطى من رجال القرن الثانى عشر وصفاً حياً ممتعاً مباراة فى الجحفة (البولو) استخدمت فيها مضارب ذات أوتار من الحبال شبيهة بلعبة لاكرس Lacrosse الكندية[١٣٥] . ويقول أحد مؤرخى العصور الوسطى الإخباريين(*) وهو مروع وجل إن كرة القدم « لعبة بغيضة يدفع فيها الشبان كرة ضخمة ، لا يقذفها فى الهواء ، بل يضربها بالقدم »[١٣٦] . ويبدو أن هذه اللعبة جاءت من بلاد الصين إلى إيطاليا[١٣٧] وإنجلترا حيث انتشرت فى القرن الثانث عشر انتشاراً واسعاً ، وقد بلغ من عنفها أن حرمها إدورد الثانى لأنها تؤدى إلى تعكير السلم (١٣١٤) .

وكان الناس وقتئذ أكثر ميلا إلى التآلف والاشتراك فى الحياة مما هم الآن وكانت أنواع النشاط الجماعية تهز المشاعر فى أديرة الرجال والنساء ، وفى الجامعات ، والقرى ، ومراكز نقابات الحرف . وكانت الحياة بهجة مرحة فى أيام الآحاد والأعياد بنوع خاص ؛ ففى تلك الأيام كان الفلاحون ، والتجار ، وكبار الملاك يلبسون أحسن ما عندهم من الثياب ، ويطيلون الصلاة أكثر من المعتاد ، ويشربون أكثر ما يستطيعون[١٣٨] وكان الإنجليز إذا حل أول يوم من شهر مايو يقيمون عمود هذا اليوم ، ويضيئون المشاعل ، ويرقصون حولها ، وكأنهم يعيدون وهم نصف واعين ذكريات أعياد الخصب الوثنية . وكانت كثير من البلدان والقصور فى أيام عيد الميلاد تعيّن « سيداً لسوء الحكم » ينظم للجماهير ضروب التسلية والمناظر . وكان المهرجون يلبسون الأقنعة ، واللحى المستعارة ، والأثواب المضحكة ، ويسيرون فى الطرقات يمثلون مسرحيات ، أو ألعاباً ، أو ينشدون أغانى عيد الميلاد ؛ وكانت البيوت والكنائس تزدان بشرابة الراعى واللبلاب « وبكل ما هو أخضر فى هذا الفصل من السنة [١٣٩] » . وكانت هناك

(*) المؤرخون الإخباريون هم الذين يكتفون فى تواريخهم بإيراد الحوادث وتواريخها Chronicler مع وصف لما يشاهدونه فى بعض الأحيان أمثال الجبرتى . (المترجم)

أعياد للفصول الزراعية ، وللانتصارات القومية أو المحلية ، وللقديسين ، ولنقابات الحرف ، وقلما كان يوجد فى تلك الأيام رجل لا يملأ معدته بالشراب . وكان لإنجلترا المرحة أسواق تنساب فيها الأموال وتجرى فيها الجعة جرياناً سريعاً ولكنه ليس بالمجان ؛ وكانت الكنيسة فى القرن الثالث عشر تندد بهذه الاحتفالات ، ولكنها هى نفسها اتخذتها أعياداً لها فى القرن الخامس عشر (١٤٠) .

وقد كيفت بعض الأعياد حفلات الكنيسة فجعلتها جدية فى قالب هزلى ، صخابة تختلف من الفكاهة الساذجة إلى الهجاء الشائن المقذع ، وكانت مدينتا بوڤيه Beauvais ، وسان Sans ، وغيرهما من البلدان الفرنسية تحتفل فى اليوم الرابع عشر من شهر يناير بعيد الحمار fête a l'âne : فتركب فتاة جميلة حمارا ، ويخيل إلينا أنها تمثل بهذه الطريقة مريم أم المسيح أثناء فرارها إلى مصر ، ثم يقاد الحمار إلى كنيسة ، وينحنى ويثنى ركبته اليمنى احتراما وعبادة ، ويوضع بجانب المذبح ؛ ويستمع إلى قداس وترانيم يتغنى فيها بمديحه ، فإذا انتهت الصلاة نهق القس والمصلون ثلاث مرات تكريما لهذا الحيوان الذى أنجى أم المسيح من هيرودس وحمل عيسى إلى أورشليم (١٤١) . وكانت أكثر من عشر مدائن فى فرنسا تحتفل فى كل عام — ويكون ذلك عادة فى يوم عيد الختان — بعيد البلهاء fête de fous . وكان يسمح فى هذا اليوم للطبقة الدنيا من القساوسة أن تثأر لخضوعها إلى كبار القسيسين والأساقفة طول العام بالسيطرة على الكنيسة والقيام بالشعائر الدينية ؛ وكانوا يلبسون فى ذلك اليوم ملابس النساء أو الملابس الكهنوتية مقلوبة ، ويختارون واحدا منهم ليكون أسقف البلهاء episcopus fatuorum ، ثم ينشدون أناشيد بذيئة ، ويأكلون الوزم على المذبح ، ويلعبون النرد عند أسفله ، ويحرقون أحذية قديمة فى المبخرة ، ويلقون مواعظ مرحة (١٤٢) . وكانت

كثير من البلدان فى إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر تختار من أهلها أسقف صبيان episcopus puerorum ، ليرأس زملاءه فى تقليد فكه للحفلات الكهنوتية[١٤٣] . وكان رجال الدين المحليون يبسمون لهذه المهازل الشعبية ويتسامحون فيها ، وظلت الكنائس وقتاً طويلا تغض النظر عنها ، ولكنها حين رأتها تنزع إلى الإسراف فى التحقير والبذاءة اضطرت إلى مقاومتها حتى اختفت آخر الأمر فى القرن السادس عشر(*) .

وكانت الكنيسة بوجه عام متسامحة لينة الجانب إزاء فكاهات عصر الإيمان الوقحة ، وذلك لعلمها أن الناس لا بد لهم أن يتحللوا بين الفينة والفينة من القواعد الأخلاقية ، وأن تفك القيود التى تعد فى الأوقات العادية ضرورية للمجتمع المتمدين . ولقد يغضب بعض أشداء المتزمتين أمثال القديس يوحنا كريسستوم St. John Chrysostom وينادون : « أتضحكون وقد صلب المسيح ؟ » ولكن « الفطائر ، والجعة لم تنقطع ، والنبيذ ظل يجرى ساخنا فى الأفواه ، وكان القديس برنار يرتاب فى المرح والجمال ، ولكن معظم رجال الدين كانوا فى القرن الثالث عشر أكولين ، يستمتعون باللحم والشراب ، ولا يرون فى هذا ما يؤنبهم عليه ضميرهم ، ولا يغضبون إذا سمعوا فكاهة حلوة أو رأوا ساقا جميلة ؛ ذلك أن عصر الإيمان لم يكن عصر جد وكآبة ، بل كان عصراً مليئاً بالحيوية والمرح الشديد ، والعاطفة الرقيقة ، والسرور الساذج من نعم الأرض . ولقد كتب طالب مفكر على ظهر كتاب المفردات اللغوية أمنية له يتمناها لنا جميعاً :

(*) بيد أن أسقف غلهان لا يزال ينتخب فى كل عام فى أدلستون Addlestone من أعمال سرى Surrey بإنجلترا .

وإنى لأرغب أن تكون الأيام كلها إبريل ومايو ، وأن يجدد كل شهر جميع الفواكه مرة بعد مرة ، وأن تنبت فى كل يوم أزهار الزنبق ، والمنثور ، والبنفسج ، والورد فى كل مكان يطرقه الإنسان ، وأن تظل أشجار الغابات مورقة ، والمروج خضراء ، وأن ينال كل محب محبوبته ، وأن يحب كلاهما الآخر حباً صادقا أكيداً يمتلئ به قلبه ، وأن يستمتع كل إنسان بما يحب من اللذة وأن يمتلئ القلب مرحاً وغبطة(١٤٥) .

الفصل التاسع

الأخلاق والدين

ترى هل تؤيد الصورة العامة لأوربا فى العصور الوسطى الاعتقاد بأن الدين يبعث على مكارم الأخلاق ؟ .

إلى الصورة التى تنطبع فى أذهاننا بوجه عام لتوحى بأن الثغرة الفاصلة بين نظرية الخلق الطيب وحقيقته فى العصور الوسطى أوسع منها فى أى عصر آخر من عصور الحضارة . ذلك أن العالم المسيحى فى تلك العصور لم يكن يقل عنه فى عصرنا اللادينى الحاضر امتلاء بالشهوات الجنسية ، والعنف ، وإدمان الخمر ، والقسوة ، والفظاظة ، والدنس ، والشره ، والسطو ، والخيانة ، والتزوير . ويلوح أنه يفوق عصرنا الحاضر فى استعباد الأفراد ؛ ولكنه لم يكن يضارعه فى الاستعباد الاقتصادى للأقاليم المستعمرة أو الدول المغلوبة . وقد فاقنا فى إذلال النساء ، ولكنه لا يكاد يضارعنا فى عدم الاحتشام ، وفى الفسق ، والزنا ، وفى الحروب الضروس ، وفى كثرة من يقتلون فيها . وإذا وازنا بين مسيحية العصور الوسطى والإمبراطورية الرومانية من نيرفا إلى أورليوس ، حكمنا أن هذه المسيحية قد رجعت بالناس إلى الوراء من الناحية الأخلاقية ؛ غير أن كثيراً من أجزاء الإمبراطورية كانت فى عهد نيرفا قد استمتعت بقرون كثيرة من الحضارة ، على حين أن العصور الوسطى تمثل فى معظم مداها كفاحاً بين المبادئ الأخلاقية المسيحية والهمجية القوية التى كانت تحمل إلى حد كبير المبادئ الأخلاقية لدين لم تهتم هى بتلقى تعاليمه . ولقد كان يسع البرابرة أن يسموا بعض رذائلهم فضائل تستلزمها أحوال زمانهم ؛ فعنفهم تطرف فى الشجاعة ،

وشهوانيتهم زيادة فى الصحة الحيوانية ، وخشونتهم وصراحتهم فى الحديث ، وعدم حيائهم إذا تحدثوا عن الأشياء الفطرية ليست شراً من الخفر المصطنع الذى ينطوى عليه شبابنا .

ولقد يكون من الأمور السهلة أن ندين مسيحية العصور الوسطى بالاعتماد على أقوال من كتبوا فى الأخلاق من أبنائها . فلقد كان القديس فرانسس يندب سوء أحوال القرن الثالث عشر ويصفه بأنه « زمان الخبث والظلم اللذين لا حد لهما[١٤٦] » ؛ وكان إنوسنت الثالث ، والقديس بوناڤنتورا ، وفنسنت البوڤيزى ، ودانتى يرون أن أخلاق ذلك « القرن العجيب » هى الفظاظة التى لا أمل فى إصلاحها ؛ وقال الأسقف جروستستى Grosseteste ، وهو من أكثر أحبار ذلك العصر حصافة ، للبابا « إن الكاثوليك فى جملتهم أحلاف الشيطان »[١٤٧] . وحكم روجر بيكن (١٢١٤ ؟ — ١٢٤٩) على العصر الذى يعيش فيه حكما متطرفا كعادته فقال :

لم يوجد قط ، ما يماثله فى الجهل . . . لأن فيه من الرذائل ، ما لا مثيل له فى أى عصر سابق ... فيه الفساد الذى لا حد له ... والعهر ... والنهم ... ومع هذا فإن لدينا التعميد ولدينا وحى المسيح . . . اللذين لا يستطيع الناس أن يؤمنوا بهما حق الإيمان أو يجلوهما حق الإجلال . . . وإلا لما سمحوا لأنفسهم بأن يقعوا فى هذا الفساد كله . . . ولهذا فإن كثيرين من العقلاء يعتقدون أن أوان المسيح الدجال قد آن ، وأن نهاية العالم قد اقتربت[١٤٩] .

ولا حاجة إلى القول بأن هذه العبارات وأمثالها إنما هى مغالاة ضرورية يعمد إليها المصلحون ، وأن فى وسع الإنسان أن يجد أمثالها فى كل عصر من العصور .

ويبدو أن أثر خوف الجحيم فى رفع المستوى الخلقى كان أقل من أثر الرأى العام أو القانون فى أيامنا هذه أو فى ذلك الوقت ؛ ولكن جديراً بنا أن نذكر أن

المسيحية هى التى خلقت الرأى العام فى تلك الأيام ، وأنها هى التى أوجدت القانون إلى حد ما ؛ وأكبر الظن أنه لولا القانون الأخلاقى الذى خلقته المسيحية ، وما كان له من أثر ملطف ، لكانت الفوضى التى أوجدتها خمسة قرون من الغزو ، والحرب ، والتدمير والتخريب أشد مما كانت . ولقد يكون الباعث الذى حملنا على اختيار الأمثلة التى ذكرناها فى هذا الفصل هو التحيز غير المقصود ، فإن لم يكن فإن أحسن ما توصف به أنها جزئية غير وافية ؛ ذلك أن الإحصاءات معدومة وإن وجدت فهى غير موثوق بها ، ومن شأن التاريخ أن يسقط من حسابه على الدوام الرجل العادى . وما من شك فى أنه كان فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى آلاف من السذج الأخيار أمثال أم الأخ سلمبين Salimbene التى يصفها بأنها : « سيدة متواضعة تقية مخلصة ، تكثر من الصوم ، ويسرها أن توزع الصدقات على الفقراء »[١٤٩] ؛ ولكن كم مرة نعثر فى صفحات التاريخ على مثيلات هذه السيدة ؟

ولقد كانت للمسيحية فى الأخلاق آثار رجعية وآثار تقدمية معاً . فلقد كان من الطبيعى أن تضمحل الفضائل الذهنية فى عصر الإيمان ؛ وحلت الغيرة والحماسة ، والإعجاب بالصلاح والطهارة ، والتقوى غير المستندة إلى الضمير ، فى بعض الأحيان ، حلت هذه محل الذمة العقلية (النزاهة فى النظر إلى الحقائق) والبحث عن الحقيقة . وبدا للناس أن « الأكاذيب التقية » الممثلة فى تبديل النصوص ، وتزوير الوثائق آثام عرضية بسيطة يتجاوز عنها . وتأثرت الفضائل المدنية بقصر الاهتمام على الحياة الآخرة ، وتأثرت أكثر من هذا بانحلال الدولة ؛ ولكن الذى لا شك فيه أن حب الوطن ، مهما يكن حبا محليا ، لم ينعدم من قلوب الرجال والنساء الذين شادوا هذه الكنائس الكبرى الكثيرة ، وبعض الأبهاء العظيمة فى المدن . ولعل النفاق ، الذى هو من مستلزمات الحضارة ، قد زاد فى العصور الوسطى ، إذا نظرنا إليه فى ضوء نزعة القدماء الدنيوية الصريحة ،

أو الوحشية الجماعية السافرة التى نشاهدها فى هذه الأيام .

على أن هذه الرذائل وغيرها تقابلها كثير من الفضائل . فلقد كافحت المسيحية ببسالة وإصرار سيل الهمجية القوى الجارف ؛ وبذلت جهوداً جبارة لتقليل الحروب والمنازعات ، والالتجاء إلى القتال والتحكيم الإلهى فى المحاكمات ؛ وأطالت فترات الهدنة والسلام ؛ وسمت بعض السمو بعنف الإقطاع ومنازعاته فجعلتهما وفاء وفروسية ؛ وقاومت القتال فى المجتلدات ، ومنعت استرقاق المسجونين ، وحرمت اتخاذ المسيحيين عبيداً ، وافتدت عدداً لا حصر له من الأسرى ، وعملت على تحرير أرقاء الأرض أكثر مما عملت على استخدامهم فى أراضيها ، وغرست فى النفوس احتراما جديداً للحياة والأعمال البشرية ، وحرمت وأد الأطفال ، وقللت من الإجهاض ، وخففت أنواع العقاب التى كان يفرضها القانون الرومانى وقانون القبائل المتبربرة ؛ ولم تقبل مطلقاً أن يكون مستوى الأخلاق عند النساء مختلفاً عنه عند الرجال ؛ ووسعت مجال الصدقات وأعمالها ، ووهبت الناس طمأنينة عقلية وسط ألغاز العالم المحيرة للعقول ، وإن كانت بعملها هذا قد ثبطت البحوث العلمية والفلسفية . وآخر ما نذكره لها أنها علمت الناس أن الوطنية إذا لم يقاومها ولاء أسمى منها تصبح أداة للشره والنهم الجماعيين . وقد فرضت على جميع المدن والدول الصغرى الأوربية المتنافسة قانوناً أخلاقيا واحداً ، وحافظت عليه ؛ واستطاعت أوربا بهديها ، وبشىء من التضحية التى لا بد منها ببعض حريتها ، أن تستمتع مدى قرن من الزمان بالمبادئ الأخلاقية الدُّوَلية التى تتمناها وتكافح من أجلها فى هذه الأيام — نعنى بها أن يكون لها قانون يخرج الدول من قانون الغابة ، ويوفر على الناس جهودهم لينفقوها فى معارك السلام وانتصاراته .